

الباب الأول
أنا.. وعبد الناصر

obbeikan.com

الفصل الأول

الطريق إلى الملك فيصل « ١ »

لم يكن اللقاء بالرئيس عبدالناصر مخططا، كما لم اسع إليه لا فى المرة الأولى ولا فيما بعد، وبالمثل فإننى لم أسع للقاء الرئيس السادات أما الرئيس حسنى مبارك فقد عرفته وهو ضابط وقائد بالقوات الجوية وظلت العلاقة مستمرة بعد أن أصبح نائبا لرئيس الجمهورية ولكنها تراجعت بعد أن صعد إلى مقعد الرئاسة.

وإذا ما عدت إلى الخلف وحاولت العثور على نقطة بداية لكل ما جرى وما عشته من أحداث يمكن تبين علامات على الطريق لم يكن من الممكن قراءتها وقتذاك. والآن أجد أن الحياة سلسلة متصلة من الحلقات كل منها تفضى إلى الأخرى دون أن تبوح بالمجهول أو بما هو قادم. حتى الطموحات والأحلام والأمانى لم تكن تشى بشىء فالكل يملكون أحلامهم الخاصة والعامة والكل يحاول الوصول إليها أو لا يحاول ويكتفى بامتلاك الأحلام أيا كانت عظمتها أو تواضعها.

وعالم أحلامى منذ البداية ارتبط بقضية الوطن والتحرر من الاستعمار. فى ذلك الوقت كان الطرح بسيطا، أن مشروع النهضة والتقدم سيبدأ وينطلق بقوة بعد القضاء على الاستعمار أى أن مقاومة المستعمر الإنجليزى هى الطريق للانعتاق والانطلاق.

وعاش جيلى يحلم ويعمل من أجل التحرر من الاستعمار وكان المناخ آنذاك هو التظاهر.

وكتلميذ بالمرحلة الابتدائية كنت اکتفى بالمشاركة فى المظاهرات التى تخرج من المدارس الثانوية لتسير فى شوارع مدينة الزقازيق.. وفى بداية المرحلة الثانوية التى عشتها بمدرسة الزقازيق الابتدائية الأميرية التى كان بها سنتان من مرحلة الدراسة الثانوية السنة الأولى والسنة الثانية، مرت مظاهرة خرجت من مدرسة الزقازيق الثانوية الأميرية وعبرت بحر مويس حتى وصلت إلى أسوار مدرسة الزقازيق الابتدائية الأميرية والكل يهتف يحيا اتحاد

الطلبة.. كنا فى الفصول والدراسة مستمرة والمدرسون ينصحوننا بالاستمرار فى الدراسة وعدم الالتفات إلى المظاهرة إلا أننى غادرت مقعد الدراسة وهتفت «يحيا اتحاد الطلبة» فخرج الفصل معى فى مظاهرة وتمكنا من إخراج باقى الفصول وانضمنا إلى مظاهرة الزقازيق الثانوية. وأفسح لى قادة المظاهرة الكبار مكانا للاشتراك فى القيادة وكانت المرة الأولى التى أقود فيها مظاهرة ولم تكن الأخيرة.

وعندما أعلن مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء فى أكتوبر عام ١٩٥١م إلغاء معاهدة ١٩٣٦م بدأت عمليات فدائية فى منطقة القناة للضغط على قوات الاحتلال من أجل أن يرحل. كنت بالسنة الثالثة الثانوية بمدرسة الزقازيق الثانوية فتوجهت للتطوع بكتائب حزب الوفد التى رأيت أنها الأنسب بالنسبة لى.

ورغم صغر سنى «١٤ عاما» تم قبول تطوعى ورحبوا بى باعتبارى زعيما صغيرا أى أنه لولا قيادتى لمظاهرة مدرسة الزقازيق ما قبلوا تطوعى.

حلقة تقود إلى أخرى دون أن تشى بشيء مما هو قادم.

وبعد مرحلة تدريبية قصيرة اشتركت فى العمل الفدائى. فى البداية شاركت فى نقل الأسلحة والذخائر، ورأى القادة أننى يمكن أن أشارك فى العمليات الفدائية بشكل مختلف فانتقلت لمرحلة الاشتراك فى العمليات العسكرية ضمن القوة السائرة أو قوة الحماية بعدها شاركت فى عمليات الاقتحام وذاع صيتى باعتبارى الأصغر سنا بين الفدائيين بمنطقة القناة.. والأكثر جرأة وربما كان ذلك لأننى صغير السن لا أحسب العواقب جيدا. وبعد معركة الإسماعيلية التى هاجمت فيها قوات الاحتلال الإنجليزى مبنى مديرية الإسماعيلية وقوات الشرطة والأمن يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢م واحتراق القاهرة اليوم التالى توقفت الأعمال الفدائية بمنطقة القناة، وعاشت مصر مرحلة المخاض اليوليوى.

وكان المحور الثانى فى عالم اهتماماتى هو القراءة وقبل أن أحصل على شهادة التوجيهية «إتمام الدراسة بالمرحلة الثانوية» كنت قد تمكنت من قراءة معظم الكتب الموجودة بمكتبة البلدية «المكتبة العامة» بالزقازيق بالإضافة إلى مكتبة المدرسة وقد أقام الأستاذ عطية السيد مدرس اللغة العربية والمشرف على المكتبة حفل تكريم لى حضرها الناظر والمدرسون وممثلون من التلاميذ لمختلف السنوات الدراسية وتم إهدائى مجموعة من الكتب، وأقر الجميع أنها المرة الأولى التى يحدث فيها ذلك.

هذا الاستغراق فى القراءة وهذه العوالم المبهرة للكلمة والسياحة عبر الصفحات التى لم تعرف التوقف فى عالم المعرفة والأفكار شجعنى على التردد على ندوات الكبار بالقاهرة. العقاد. مندور. نادى القصة. النادى الثقافى بجاردن سيتى، نجيب محفوظ، القبانى كلما كانت الفرصة متاحة.

والأهم كان بداية التساؤل، ولماذا لا أحاول الانضمام إلى عالم أهل الكلمة؟ ولماذا لا أحاول أن أكون صحفياً؟ وكانت تلك نقطة البداية فى حلم الالتحاق ببلاط صاحبة الجلالة، وعلى امتداد سنوات الأحلام لم تتوقف محاولتى إلا بعد الانضمام لأسرة جريدة الأخبار ولم يكن هناك من أبناء العائلة من فكر فى اختيار الصحافة مهنة له قبلى وهذا ما جعلنى أول أفراد الأسرة فى بلاد صاحبة الجلالة ليس ذلك فقط بل لم يكن هناك خال أو عم أو قريب أو صهر أو نسيب يمكن أن استفيد من خبرته أو أن يقدم لى يد المساعدة لذا لم يكن أمامى سوى الاعتماد على الله وعلى نفسى إذا ما أردت الاستمرار والنجاح. ولقد كنت راغباً فى النجاح بكل خلية وكل ذرة فى كيانى كما كنت فى الوقت نفسه أخشى الفشل جداً، ولم يكن أمامى سوى العمل بكل ما أمك من طاقة بل وبما يجاوز حدود هذه الطاقة، كانت المنافسة شديدة الشراسة فالمهنة مهنة منافسة والسوق مفتوحة ولم تكن قرارات تأميم الصحافة قد صدرت بعد. وكان النجاح هو طريق الصعود. وكانت نماذج النجاح عديدة وكلها سارت على درب بالعمل والكفاءة والذكاء والموهبة، وكان الجميع يقولون لنا إن الموهبة تشكل ١٪ فقط أما المثابرة فتشكل ٩٩٪ هذه إذن معادلة النجاح. المثابرة والموهبة وفى ظل هذه المنافسة المشروعة فى مهنة لا تعرف الأقدمية والدرجات كان الكل يعمل ويسعى للنجاح ووضعت نصب عيني أن أعمل أكثر من الآخرين وأن أتجنب الوقوع فى الأخطاء قدر الإمكان، وقد كان، كنت أعمل لأكثر من ١٦ ساعة يومياً فبعد جولة الصباح والظهيرة بحثاً عن الأخبار والمعلومات أنضم إلى الفريق الذى يساعد نائب رئيس التحرير المسئول عن إصدار الجريدة ولا أغادر المبني إلا بعد صدور الطبعة الأولى.

هذا الحرص الفائق على النجاح والخوف الكبير من الفشل ومتابعة الجميع للجهد الذى أبدله كان وراء ترشيح مجلس التحرير لى بالإجماع للسفر إلى المملكة العربية السعودية بعد توقيع كل من الرئيس عبدالناصر والملك فيصل اتفاقية جدة فى أغسطس ١٩٦٥م لإنهاء الصراع العسكرى فى اليمن، لإعداد مجموعة من التقارير والتحقيقات عن الموقف والأوضاع

عقب هذه الخطوة الرئيسية، وهذا القرار فتح لى الباب للقاء الملك وبسبب الحوار الصحفى مع الملك، كان اللقاء مع الرئيس عبدالناصر لأول مرة، حلقة تقود إلى أخرى دون أن تشى، أو تبوح بأى شىء. خطوات على طريق الأقدار لا يمكن لبشر تقديرها أو التنبؤ بها. أما المحور الثالث للاهتمامات فيرتبط ارتباطا وثيقا بالمحور الثانى فقد كشفت لى قراءة تاريخ مصر الارتباط بين الانتصارات العسكرية والازدهار والعكس صحيح أى الارتباط بين الهزائم والانكسار ودون الاستغراق فى التفاصيل سنكتفى بالإشارة إلى أن سنوات الانتصارات العسكرية لجيش محمد على باشا كانت هى السنوات المضيئة فى عصره وهى التى شهدت بناء قواعد النهضة المصرية الحديثة بكل جوانبها العلمية والتعليمية والثقافية والصناعية والزراعية والاجتماعية.

وعندما ذاقت مصر طعم الهزيمة بعد اشتراك القوى العسكرية الأوروبية فى تدمير الأسطول المصرى فى نافرين عام ١٨٢٧م وإرغام الجيش المصرى على الانسحاب من الشام والتفوق داخل حدود مصر وفرض معاهدة لندن ١٨٤٠م على والى مصر الشجاع بدأت سنوات التراجع والانكسار الداخلى.

وتكرر الأمر فى عصر إسماعيل باشا، فقد تحركت قواته للاستيلاء على كل من زيلع ومصوع وسواكن على شاطئ البحر الأحمر الغربى، ووفرت الحماية لعمليات استكشاف منابع النيل فبدأت سنوات الازدهار من جديد وانطوت الصفحة فى عصر ابنه الخديو توفيق باحتلال الإنجليز لمصر عام ١٨٨٢م.

وعاد الجيش المصرى إلى صدارة المشهد بالعمليات العسكرية فى السودان وواكب ذلك وأعقبه ثورتا مصطفى كامل وسعد زغلول وإصدار دستور ١٩٢٣م، فعادت مصر لتواصل السير على طريق بناء مشروعها النهضوى الذى بدأه محمد على باشا. وعندما بدأ الصراع العسكرى المصرى الإسرائيلى فى إطار الصراع العربى الإسرائيلى وواجهت مصر الهزيمة فى معركة ١٩٤٨م بدأت الشروخ فى الجسد المصرى.

وكان هذا المحور وراء اختياري العمل فى القطاع العسكرى بجريدة الأخبار دعما للقوات المسلحة وأحلام الانتصار الذى سيقود مصر للازدهار من جديد.

وهذا التخصص فتح الباب لعلاقات وطيدة ومفتوحة بقيادة وضباط القوات المسلحة والمهم لقبول تطوعى بالصفة المدنية بقوات الكوماندوز والمجموعة ٣٩ قتال بعد نكبة يونيو ١٩٦٧م للعمل خلف خطوط العدو فى سيناء المحتلة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن طلب التطوع كان السبب في الاقتراب للمرة الثانية من عالم الرئيس عبدالناصر فبعد أن رفض الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية طلب تطوعي، قرر اللواء محمد صادق مدير المخابرات الحربية عرض الأمر على الرئيس عبدالناصر الذي وافق عليه.

والانخراط في العمل الفدائي لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي هو الاستمرار المنطقي للاشتراك في مواجهة قوات الاحتلال الانجليزي عام ١٩٥١م، وهذا التخصص هو الذي أتاح لي الاقتراب من المشير عبدالحكيم عامر وأنور السادات وبناء علاقة بحسنى مبارك بالإضافة إلى كل من الملك فيصل والملك فهد والمشير عبدالله السلال ونائبه الفريق حسن العمرى والعقيد معمر القذافي ونائبه جلود وباقي قادة الثورات الليبية وباسر عرفات وصادم حسين والشيخ زايد وأمير الكويت وتيتو وسوهارتو وماوتسى تونج وأولبريشت وهيلموت كول وغيرهم. وبما أن لقاء الملك فيصل كان السبب في أول لقاء لي مع الرئيس عبدالناصر سأعود إلى أوراقى لأروى حكاية هذا اللقاء.

اجتمع مجلس تحرير الأخبار صباح اليوم التالى لتوقيع اتفاقية جدة وكان من بين القرارات التى اتخذها بالإجماع سفرى إلى السعودية لمتابعة الموقف السعودى من تنفيذ الاتفاقية التى استهدفت حل المشكلة اليمنية التى بدأت بانقلاب السلال على حكم أسرة حميد الدين يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م ثم تحولت إلى مستنقع لاستنزاف مصر ماديا وبشرياً. وهنا يجب أن نشير إلى أن مصر كانت تخسر يوميا أكثر من خمسة ملايين دولار بجانب خسائرها من الأفراد والأسلحة والمعدات وأدى التدخل العسكرى المصرى الذى بدأ فى أعقاب نجاح الانقلاب العسكرى إلى تدخل أطراف أخرى إقليمية مثل المملكة العربية السعودية وإيران والأردن وإسرائيل وعالمية مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وأصبح الهدف الرئيسى لكل هذه القوى هو حصار التدخل المصرى واستنزاف عبدالناصر ونظامه.

وفى وقت قصير نسبيا تسلمت من إدارة الأخبار تذكرة السفر «وفوتشر» يسمح لى بالتنقل داخل المملكة على طائرات الخطوط السعودية وبدل السفر وبطاقة للاتصال التليفونى بالجريدة دون سداد نقود بالخارج collect وكان تقديرى أننى سأحصل على التأشيرة دون إبطاء إلا أن السفارة السعودية احتاجت ما يقرب من ثلاثة أشهر لكى أحصل عليها. وقبل الوصول إلى جدة سألت عن الفنادق الموجودة بها فأخبرونى بوجود فندقين الأول

«الكندرة» والثانى «قصر البحر الأحمر» ولأن الأخير كان يطل على البحر وقريب من السوق الرئيسى بالمدينة فقد اخترت الإقامة به وبعد أن أقمت فى جدة تبين أننى الصحفى المصرى الوحيد الموجود بالسعودية والمكلف بمثل هذه المهمة وبالتالى كنت على بينة من أن السلطات ستفرض رقابة على تحركاتى واتصالاتى التليفونية بسبب الحذر والشك فى صحفى يعمل فى صحافة عبدالناصر الذى عادى المملكة بل وكل نظم الحكم الملكية باعتبارها نظماً رجعية تقف فى معسكر الإمبريالية ومع ذلك كنت فى حاجة إلى لقاء كل المسئولين سواء من داخل الأسرة السعودية أو خارجها الموجودين فى جدة قبل الانتقال للعاصمة الرياض للقاء الملك الذى يعد الهدف الرئيسى لهذه المهمة الصحفية. وفى جدة التقيت بالأمير عبدالله الفيصل الابن الأكبر للملك والشاعر الكبير والشيخ كمال أدهم شقيق زوجة الملك ومدير المخابرات السعودية بالإضافة إلى عدد من الوزراء الموجودين بجدة ورجال الأعمال وفى مقدمتهم سالم بن محفوظ المالك الرئيسى للبنك الأهلى السعودى والذى يعد فى قائمة الرجال الأكثر ثراءً فى المملكة والذى يلعب دوراً رئيسياً فى المجال الاقتصادى. كما التقيت بالملك صاحب النسبة الأكبر من رأسمال الفندق رجل الأعمال المصرى وعميد الجالية المصرية بالمملكة حسن آدم وعرض على التوسط للقاء الملك ولكنى أخبرته أننى أفضل أن أسلك الطريق إلى هذا اللقاء وحدى وعبر القنوات الرئيسية بالمملكة خاصة وزير الإعلام. ثم علمت فيما بعد أن آدم عديل الملك فيصل وصاحب مركز متميز داخل الأسرة الملكية. وفى مكتبه التقيت بالفنان سعد عبدالوهاب الذى اختار الإقامة لفترات طويلة بالمملكة وبفندق قصر البحر الأحمر واصطحبني الفنان الكبير لسهرات فى بيوت عدد من الأمراء السعوديين وكثيراً ما تحولت هذه السهرات إلى ندوات ثقافية تمتد حتى ساعات الصباح الأولى.

واللافت للنظر أن أحداً من الحاضرين لم يطرح قضية سياسية للنقاش بالرغم من تعدد السهرات والمجاملات.

وكانت المجاملة والتحفظ طابع معظم هذه اللقاءات باستثناء اللقاء مع الأمير عبدالله الفيصل والشيخ كمال أدهم.

وقد حرص الأمير والشاعر عبدالله طوال اللقاء على اختيار كلماته وهو يعبر عن موقفه

من عبدالناصر ونظامه وعلى الفصل دائما بين مصر وحاكمها وعلى تأكيد صداقته بعدد كبير من المثقفين والفنانين والكتاب والصحفيين المصريين.

وقد توقف الحوار بيننا عندما قال إنه مستعد للانفاق حتى آخر هللة «مليم تقريبا» من ماله حتى يركع عبدالناصر.. وكانت إجابتى «أن عبدالناصر لن يركع».

والمثير للدهشة أن الحوار مع الشيخ كمال أدهم انتهى بنفس الصورة فقد قال الجملة نفسها التى قالها عبدالله الفيصل ولم تختلف إجابتى.

كان الرجلان حادين فى عدائهما للرئيس عبدالناصر ولم يحاولا إخفاء هذا العداء ولم يناورا، وحمدت لهما شجاعتهما الأدبية ورأيت أن هذا الموقف هو أول القصيدة، وأن اتفاقية جدة أو عشر اتفاقيات من هذا النوع من الصعب أن تحقق أى نجاح على أرض الواقع. وكان تقديرى خاصة بالنسبة لكمال أدهم أنه رجل يعلم حقيقة اتجاهات السياسة السعودية إن لم يكن يقبض بيديه على بعض خيوطها من خلال موقعه المتميز على رأس جهاز المخابرات العامة السعودية وأيقنت أن وقت التوجه إلى الرياض قد حان. وهناك بالعاصمة التقيت بالشيخ جميل الحجيلان وزير الإعلام وقتذاك وحاول الرجل إقناعى بقبول استضافة المملكة لى واعتذرت موضحا أننى كصحفى مصرى فى صحافة مملوكة للحكومة أفضل أن أتحمل تكاليف إقامتى من باب الحذر والوقاية من شكوك أجهزة الأمن القوية.

كما أن المسئولين بالقاهرة قد يسيئون فهم قبولى هذه الضيافة. ففتهم الرجل وابتسم ثم حاول تقديم هدية لى كانت تحمل وقتذاك اسم «خلعة» عرفت فيما بعد أنها تضم سبحة وعباية فخمة ومبخرة وطاقم أقلام وسجادة للصلاة ولكننى اعتذرت بركة شديدة.

وبعد حوار حول اتفاقية جدة التزم فيه الرجل بالموقف الرسمى، ولم يحاول أن يخصنى بمعلومات من تلك التى يطلب فيها المسئولون عادة عدم نشرها لأنها للعلم فقط Offrecord. وطلبت منه أن التقى بالملك فقال ببساطة اذهب والتقى بالملك ودق الجرس فحضر سكرتيره فطلب منه أن يصحبنى المرافق لى الآن إلى القصر الملكى والتفت إلى مودعا وداعيا لى بالتوفيق.

وأمام القصر توقفت السيارة، وقال المرافق السعودى إنه يمكننى الدخول ولقاء الملك وتركنى وانصرف.

وأمام هذه المفاجأة التي لم أتوقعها كان على أن اتخذ قرارا إما الدخول الآن وإما العودة إلى وزارة الإعلام أو العودة إلى الفندق وبما أنني أمام القصر وبما أن الوزير والمرافق أوضحوا لي أنه يمكنني لقاء الملك فقد قررت الدخول والتصرف وفقا لما سوف أواجهه داخل القصر الملكي من مواقف.

□□□

حوار مع الملك فيصل (٢)

عندما طلبت من الشيخ جميل الحجيلان وزير الإعلام السعودي مقابلة الملك فيصل من أجل إجراء حوارٍ صحفى للنشر بجريدة الأخبار المصرية ، وافق الرجل فوراً وتصورت أنه سيجرى اتصالاً بالقصر الملكى لتحديد موعد لهذا اللقاء وقبل الموعد سيمر على المرافق السعودى بالفندق ليصحبنى للقاء الملك ، وسينتظر بمكتب رئيس الديوان الملكى إلى أن ينتهى اللقاء ليعود بى إلى الفندق أو للقاء الوزير إلا أن كل ذلك لم يحدث وقال لى الوزير اذهب وقابل الملك. وطلب من المرافق أن يصحبنى إلى القصر الملكى. وهناك أمام بوابة القصر قال لى المرافق ادخل وقابل الملك وتركنى وانصرف. ومن قلب الدهشة والحيرة والمفاجأة قررت أن أدخل القصر. وليكن ما يكون واجتزت البوابة الرئيسية والحديقة الصحراوية التى تضم عدداً من أشجار النخيل والنباتات الشوكية وبقايا مساحات خضراء طغت عليها الرمال. ثم دلفت من الباب الرئيسى. وأنا أتعمد عدم النظر إلى من ألتقى بهم وكان اللافت للنظر عدم وجود حراسة أو أفراد أمن أو أسوار أمنية لمنع الدخلاء مثل تلك التى أعرفها فى مصر. وسرت قليلاً فى الممرات فوق سجاد أحمر اللون. وقلت لنفسى سوف أعرف مكان مكتب الملك ومكاتب المديرين من خلال هذا السجاد وحرصت على ألا أسأل أحداً حتى لا أواجه بسؤال أو بأسئلة من أى نوع. ولكن كان واضحاً لكل من يمرون بجوارى أننى لست سعودياً لأننى الوحيد الذى يرتدى حلة وربطة عنق ويحمل جهاز تسجيل على كتفه. ومع ذلك لم أسأل أو أستفسر وواصلت السير فى الممرات وفى إحداها وجدت أن السجاد ازداد سمكه فاستنتجت أننى بالممر الذى يقود إلى مكتب الملك وما أن سرت قليلاً حتى وجدت نفسى أمام مكتبين متقابلين أحدهما له باب جانبي أى على ممر آخر وبابه مفتوح أما الآخر فبابه مغلق. فأدركت أنه مكتب الملك أما الثانى المفتوح فمكتب مدير مكتبه وكان اسم الرجل قد تردد كثيراً فى لقاءاتى السابقة باعتباره المسئول عن مكتب الملك وقررت أن أدخل المكتب وسألت الجالس عليه عن الشيخ أحمد إبراهيم فقال إنه هو فقدمت نفسى إليه فطلب منى الجلوس وأمر بالقهوة وكلما انتهيت من شرب هذه الرشقات من القهوة

العربية قدموا لى المزيد وطال الوقت قليلا فتوجهت إلى مكتب الرجل لأسأل متى سأقابل طويل العمر جلالة الملك فطلب منى الانتظار مع وعد بأننى سأقبله.

وجلست مع الجالسين الذين تزايد عددهم وبعد فترة فتح الشيخ الباب المطل على المر الرئيسي والمواجه لمكتب الملك الذى كان مفتوحا وطلب من الجميع أن يتفضلوا إلى مكتب طويل العمر ووجدت أن من دخلوا قد جلسوا على المقاعد الجانبية بالمكتب المتسع المساحة الذى يتصدره المكان الذى جلس فيه الملك.

وظل الرجل يستقبل الحاضرين فردا فردا وبعد أن يستمع إليهم يصدر أوامره همسا وبما يفيد استجابته لمطالبهم.

وبعد قليل قال فليتفضل الصحفى المصرى ويجلس بالقرب منى واتجهت إلى حيث أشار ثم خاطبنى قائلا: إنه سينظر فى مصالح الناس إلى أن أنتهى من شرب قهوتى.

وحتى لحظة جلوسى بالقرب من الملك ثم بجواره لم أمر بأى إجراءات أمنية ولا حتى بمكتب للاستعلامات ولم يسألنى أحد إلى أين؟ أو من أين؟ أو من أنا؟

وأخيرا أشار الملك لى أجلس بجواره. وسألنى عن أحوالى وكيف أجد الإقامة فى المملكة ومن ثم فتح الباب أمامى لأستأذنه فى إجراء حوار معه فأشار إلى أن الشيخ جميل أخبره أننى رفضت هدية فأجبت بسرعة إن هديتى الحقيقية هى الحوار مع جلالته.

وقبل أن أطرح أسئلتى أستأذنته فى تسجيل الحوار، وأذن الملك وكانت البداية ما سمعته من الأمير عبدالله الفيصل والشيخ كمال أدهم، فاستنكر الملك ما قالوا، ووصف الأول بأنه ولد وقال عن الثانى إنه تركى لا علاقة له بسياسة المملكة، وكانت بداية غاية فى السياسة والذكاء والبراعة والاعتدال، كان الاستهلال رائعا وتوالت الأسئلة حول الأوضاع فى اليمن واتفاقية جدة والموقف فى العالم العربى وإسرائيل والقضية الفلسطينية والنفوذ الغربى فى المنطقة ومستقبل الصراع الإقليمى والدولى حول الشرق الأوسط فى ظل الحرب الباردة أو محاولات الاستقطاب الحادة التى يقودها المعسكران الشيوعى والرأسمالى.

كانت قائمة الأسئلة طويلة وكنت قد استغرقت وقتا طويلا فى إعدادها، وكان من الضرورى أن أقرأ عشرات الملفات والكتب والدراسات والوثائق فقد كانت المرة الأولى التى يلوح فى الأفق احتمال لقاء وحوار مع الملك فيصل ولم أكن أريد أن تكون الفرصة المتاحة هى الأخيرة، كنت أتمنى لنفسى النجاح وأن تتكرر المهام التى تقود إلى ما هو أفضل.

وبجانب الاستغراق فى الملفات والأوراق، سعيت للتعرف بشكل أفضل إلى شخصية الملك فيصل خاصة بعد أن تمكن من إزاحة سعود والحلول محلّه.

ولقد كانت هناك أسباب موضوعية من وجهة نظر الأسرة السعودية تتطلب عزل الملك سعود وإسناد المسؤولية لفيصل. فقد اتسم أداء سعود بالارتجالية والتخبط والتهور منذ أن تفجرت أحداث اليمن كما كان عاشقا للذة والنساء ومحبا للحياة المنطلقة التى لا تعرف القيود فى حين عرف عن فيصل الحكمة والتقشف والزهد والذكاء.

ولأن فيصل كان مريضا خاصة بالقرحة المعدية فقد فرض عليه الأطباء نظاما غذائيا خاصا يخلو من الدهون والتوابل ويعتمد بشكل أساسى على الأطعمة الخفيفة السهلة الهضم مع مراعاة تناول كميات محدودة فى كل وجبة وبجانب هذا النظام الغذائى كان عليه أن يلتزم بحياة معتدلة وبعيدة عن الإغراق فى المتع الحسية.

وقد ناسبته هذه الحياة المتقشفة لأنه بطبيعته هادىء ومحب للاستقامة والاعتدال.. وكان قد تعلم من ماضيه وخبراته أن يكون كتوما وألا يثق فى أحد وأن يعمل ويفكر وحده دائما وإن تطلب الأمر كان يلجأ لاستشارة من هم أهل للإستشارة. ومن ميزاته أنه فى قراراته لا يعرف الاندفاع أو التهور وكان باستمرار رجل الأزمات فى المملكة كما كان موضع ثقة والده الملك عبدالعزيز.

كل ذلك أسهم فى تكوين صورة إيجابية عنه فى أذهان الناس بجانب السمعة الطيبة. ومنذ البداية قرر أن يتحرك ويعمل على عدة محاور فى الوقت نفسه. ولكن كان عليه أن يجمع كل خيوط السلطة فى يده. وألا يسمح بوجود قوى مناوئة أو معارضة سواء داخل الأسرة السعودية أو بين صفوف المواطنين.

بدأ بالأمرء المعارضين أو المناوئين أو هؤلاء الذين سحرتهم دعاوى القومية العربية والأحلام الوحدوية بجانب الذين أضيروا أو أضررت مصالحهم من جراء عزل الملك سعود. وبالرغم من أن الرئيس المصرى قد استغل الملك سعود وهو بالمنفى فى معركته مع المملكة السعودية والملك فيصل بأن استقبل سعود فى مصر واحتفى به حفاوة بالغة ودفعه للقيام بزيارة لليمن للتدليل على انقسام الأسرة السعودية وللتلويح لفيصل بقدرته على استخدام سعود للتأمر على العرش السعودى وحرمان فيصل من الإحساس بالاستقرار فإن الملك السعودى واجه الموقف بكثير من الصمود.

وبذكاء استغل فيصل الخطأ الذى وقع فيه سعود لحصار وعزل ونفى عدد من الأمراء خاصة من أبناء سعود وأنصاره.

ولم يكن عسيرا عليه تقليص نفوذ عدد آخر من الأمراء المشايخين للعروبة أو المعارضين خاصة وهو يملك قدرات وإمكانات هائلة لممارسة الضغط عليهم سواء بسياسة المنح أو المنع أو بتحريك قوى من داخل الأسرة السعودية للتأثير عليهم مع التلويح بالمخاطر التى تهدد المملكة.

أما بالنسبة لكبار الأمراء الذين يتحملون مسئوليات مباشرة فى الدفاع عن المملكة وفى صياغة السياسات وصناعة القرارات. فقد عمد إلى تحقيق توازن فى القوى. بمنع انفراد أى منهم بالسيطرة على قوة عسكرية توفر له القدرة على ممارسة أى ضغوط أو التلويح بها.

ويعتبر الملك فيصل المهندس الرئيسى لسياسة توازن القوى داخل الأسرة السعودية بل وداخل المملكة، ولما كان سلطان هو وزير الدفاع المسئول عن القوات المسلحة السعودية فقد كان ذلك يعنى أنه القائد الحقيقى وصاحب النفوذ القوى سواء داخل المملكة أو بين أبناء الملك عبدالعزيز ولأن فيصل كان فى سبيله لعقد صفقات سلاح ضخمة لدعم قدرات القوات المسلحة، خاصة القوات الجوية والدفاع الجوى وإنشاء قواعد عسكرية خاصة على الحدود الشمالية لليمن فقد استغل الموقف وضاعف ميزانية وزارة الداخلية لى تتوسع فى مجال القوة البشرية والسلاح والخبرات الفنية والتكنولوجية.

وعلى ضوء هذه السياسة أصبحت القوى العسكرية التابعة لوزارة الداخلية قوة يعتد بها وفعل مع قوات الحرس الوطنى السعودى ما فعله مع وزارة الداخلية.

وهكذا أصبحت هناك ثلاث قوى عسكرية بالمملكة على رأس كل منها أمير من أصحاب السطوة والنفوذ. وبهذه القوى المستقلة نسبيا والموزعة والمنتشرة فى أنحاء المملكة والقوية التسليح وإن لم تكن متكافئة تماما تحقق التوازن بالمملكة وداخل الأسرة الحاكمة وأصبحت كل قوة تنظر للقوة الأخرى بكثير من الاعتبار.

وبهذه السياسة حافظ فيصل على تماسك الأسرة وأمن مخاطر الانقسام أو بروز مركز أو قوة قادرة على ممارسة أى نوع من الضغوط.

أما معركته الأخطر داخليا فكانت مع جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر القوية والمسيطرة استنادا إلى دورها وتأثيرها الدينى والأهم إلى التحالف القائم بين الأسرة السعودية

ومؤسس المذهب الوهابي والذي شكل نقطة الانطلاق لإنشاء الدولة السعودية في منطقة شبه الجزيرة العربية.

وأهم ما في هذا التحالف تقاسم السلطة بين الطرفين.. السلطة الزمنية أو السياسية للأسرة السعودية والسلطة الدينية للشيخ محمد بن عبد الوهاب وآل الشيخ من بعده أى أسرته.

كان الملك يدرك أن الجماعة تقف عقبة أمام أية محاولة لتطوير وتحديث المملكة وأن أى إصلاحات ستواجهه بمعارضة قوية وواسعة النطاق من جانب هذه الجماعة، وكان قراره ضرورة المواجهة، وما أن اعترضت الجماعة على خطته الخاصة بتعليم البنات حتى أمر بوقف مخصصاتها المالية، ومضى فى طريقه وأمر بفتح أبواب المدارس أمام البنات وبتوفير الحماية الكافية لهن ولأهاليهن ومعاقبة كل من يحاول من أعضاء هذه الجماعة التعرض لهن أو الاعتداء عليهن بأية صورة من الصور.

وأدركت الجماعة أنها تخوض معركة وجود ضد الملك فيصل ولم يكن مطروحا أن تستسلم أمامه وأمام أفكاره التى ترى أنها تتعارض مع التقاليد الراسخة للمجتمع السعودى بل ومع الدين من وجهة نظرها.

ومع ذلك لم يكن أمامهم سوى التراجع حرصا على المخصصات المالية وكسب فيصل هذه الجولة.

وسرعان ما دقت المعركة الثانية الأبواب وكان ميدانها الإذاعة. ومنذ عرفت السعودية البث الإذاعى ظل الأمر مقصورا على إذاعة القرآن الكريم والتفسير والأحاديث النبوية والشروح الخاصة بالمذهب الوهابى.

وبمثل هذه الإذاعة لم يكن ممكنا للسعودية أن تثبت فى مواجهة أعاصير الإذاعة المصرية أو غيرها من الإذاعات خاصة بعد أن انتشرت أجهزة الراديو الرخيصة السعر. ولم يكن الملك فيصل ليقبل أن يترك المواطنين السعوديين لقمة سائغة للإعلام الناصرى، فأمر بتطوير الإذاعة وبدأ بإذاعة أغانى للمطربين الرجال خشية من أن يثير صوت المطربات مشكلة يصعب مواجهتها فى تلك المرحلة المبكرة من خطة التطوير.

كانت القضية مرتبطة بالأمن القومى السعودى وبالصراع مع كل القوى العربية والإقليمية المناوئة صاحبة الخط الثورى الذى يستهدف القضاء على الممالك العربية لا المملكة السعودية فقط

باعتبارها قوى رجعية تخدم مصالح الاستعمار والإمبريالية. لم تكن القضية هنا قضية خلاف بين ملك مصلح وجماعة محافظة، بل بين الاستقرار وعدم الاستقرار، بين البقاء وعدم البقاء. ومن أجل هذه الرؤية الصحيحة سياسيا واستراتيجيا وإعلاميا خاض الملك هذه المعركة باعتبارها جزءا من الصراع مع مصر وباقي القوى الثورية العربية.

ولم تبد الجماعة أى ردود أفعال فى البداية بعدها استخدمت الإذاعة مذيوعات من الإناث وكان من بينهن ابنة وزير الإعلام وقتذاك الشيخ جميل الحجيلان ثم انتهى الأمر بإذاعة أغانى للمطربات ولم يجرؤ أى من أعضاء الجماعة على الاعتراض والصياح بأن صوت المرأة عورة أو فسق أو أن الأمر كله مخالف للدين والتقاليد أو أن الأغانى من عمل الشيطان لأنها تلهى الناس عن الصلاة وعن الذكر خشية من قطع المخصصات المالية بشكل نهائى.

ولكن الجماعة لم تلتزم الصمت عندما بدأوا العمل فى إنشاء محطة للإرسال التليفزيونى فقد تحركت بسرعة وكسبت فى صفها عددا من الأمراء وخططت للهجوم على المحطة وتدمير الهوائيات الخاصة بها وكانت الأوامر الصادرة لقوة الحراسة تقضى بإطلاق نيران فى الهواء للتحذير والإنذار إذا ما اقترب المهاجمون من مبنى المحطة بعدها توجه النيران إلى المهاجمين إذا ما استمروا فى التقدم.

وعلى مقربة من المبنى سقط أحد الأمراء قتيلا. وانسحب المهاجمون. وفى النهاية تراجعت الجماعة عن خططها الخاصة بمعارضة الملك علنا. وهكذا سيطر فيصل على الجماعة وأحكم قبضته عليها. ولجأ الملك إلى سياسة الإنفاق العام ليدعم مكانته وليكسب شعبية مساندة موقفه وسياساته.

وفى هذا الإطار عمل على توفير الخدمات وبناء المدارس والمستشفيات وإنشاء الطرق. هذه السياسة وفرت آفا من فرص العمل وفتحت الباب أمام شركات المقاولات للإثراء وهكذا تدفقت أموال سائلة كثيرة إلى جيوب المواطنين، وبما شكل قوة شرائية هائلة أسهمت فى إحداث رواج بالسوق.

أما بالنسبة للصحافة فقد خطط الملك للسيطرة عليها بتأميمها عبر قانون للصحافة. كان الملك ينهج نهجا معاديا للاشتراكية والفكر الاشتراكي ومع ذلك لجأ لتأميم الصحافة وقد

قبل بهذا التناقض طالما يحقق له أهدافه المتمثلة فى سيطرة تتيح انطلاق حملة قوية على الفكر القومى والتوجه الاشتراكى ولم تخيب الصحافة ووسائل الإعلام ظن الملك ، وشنت هجوما شرسا وشاملا وقويا على الفكر الاشتراكى ، ومزجت بين الاشتراكية والإلحاد ، وأوضحت بجلاء أن هذا الفكر ينكر وجود الله والأديان كلها.

وطوال هذه الحملة تجنبت وسائل الإعلام الهجوم على القاهرة أو عبدالناصر بشكل مباشر. ولكى يبرز الملك فيصل اقليميا وعالميا كحاكم قوى وند لعبد الناصر ونظامه كان من الضرورى العمل على عدة جبهات الأولى إعلامية عالمية والثانية عربية والثالثة إقليمية والرابعة فكرية وعقائدية ، وعلى الجبهة الإعلامية أبرزت وسائل الإعلام الأمريكية والغربية الملك فيصل كقائد حكيم يقود نظاما مستقرا ودولة رائدة ، ويعمل من أجل الاستقرار فى العالم العربى ومنطقة الشرق الأوسط التى تغلى بالاضطرابات بسبب تطرف النظم الثورية وحكامها المغامرين الذين يدورون فى الفلك السوفيتى.

وبالنسبة للجبهة العربية عمد الملك إلى دعم النظم الملكية وإعادة بناء التحالف فيما بينها بشكل يجعل تحركها أكثر فاعلية وتأثيرا.

واستند التحالف إلى توثيق التعاون والعمل المشترك ضد النظم الثورية وضد الوجود العسكرى المصرى فى اليمن.

وفى الوقت نفسه حرص فيصل على الاحتفاظ بشعرة معاوية مع باقى دول المنطقة التى ليست ملكية والتى عرفت بأنها ثورية ، وكان بذلك يحاول إقامة شرح فى العلاقات بينها وبين مصر مستغلا فى ذلك الجفوة بين النظامين السورى والعراقى ونظام عبد الناصر ومواقف البعثيين فى البلدين من الرجل خاصة بعد أحداث الانفصال السورى عام ١٩٦١م والشكوك العراقية المصرية المتبادلة والتى ترسخت خلال فترة حكم عبدالكريم قاسم.

وانطلق الحاكم السعودى على المسرح الإقليمى بقبوله دعوة لزيارة إيران حيث أعد له الشاه استقبالا حافلا اراد له أن يحمل الكثير من الدلالات وأن تقرأ القاهرة أن كل من طهران والرياض يشكلان حلفا قويا يقف فى وجه مخططاتها وأحلام حاكمها الإمبراطورية التوسعية.

خلال الزيارة تقاسم الشاه و فيصل مناطق النفوذ فى منطقة الخليج ولم يقف العاهل السعودى فى وجه أطماع الشاه فى المنطقة وفى الوقت نفسه وافق الشاه على دور ونفوذ للسعودية.

وفى مجال المعركة الفكرية والعقيدية رفع الملك فيصل بقوة شعار العمل الإسلامى والإسلام ليواجه الفكر القومى والعمل الوجودى. وهذا الشعار سبق أن رفعه وتبناه الملك سعود اعتباراً من عام ١٩٥٧م.

وبما أن السعودية هى الأرض التى تضم الحرمين الشريفين، الكعبة بيت الله والمسجد النبوى، فقد توفرت لها قاعدة راسخة لرفع وتبنى الشعار الإسلامى وقد وجدت أنصاراً كثيرين بين دول العالم الإسلامى وما منظمة المؤتمر الإسلامى إلا إحدى تجليات هذا النهج. وفى هذا الإطار خطت المملكة خطوات واسعة لدعم وتمويل كل القوى والمجالات والمنظمات والأحزاب الإسلامية فى دول العالم. ولم تكن مصر بعيدة عن هذا التوجه السعودى بل كانت فى القلب منه.

وبالوصول إلى هذه المرحلة توفرت الظروف الملائمة للمناورة ضد الرئيس عبد الناصر واستغلال تورطه فى اليمن للضغط عليه وكشف عورات نظامه.

وسرعان ما تبنت السعودية مجموعة من طروحات السلام كمرحلة من مراحل العمل التى تستهدف إحراج مصر وعبد الناصر.

وعلى هذا الطريق جاءت اتفاقية جدة عام ١٩٦٥م ويمكن القول إن كلا الطرفين لم يكن راغباً فى التوصل إلى حل جذرى للقضية، وكان كلاهما يناور لكسب الوقت على أمل أن تتاح له فرصة لتحقيق انتصار عسكري حاسم يجعله فى موقع أفضل للمساومة أو إنجاز على المسرح السياسى يضعه فى موقف تفاوضى أفضل.

وخلال الحوار الذى أعددت نفسى له طوال الفترة التى سبقت اللقاء قال الملك فيصل كلاماً طيباً فى حق الرئيس جمال عبد الناصر ووصفه بأنه يعمل من أجل التقدم العربى ولا يبخل بأى مجهود لإنجاز هذا الهدف وقال إنه يدرك أن ما يقوله الرئيس جمال فى خطبه العامة ليس أكثر من كلام للاستهلاك المحلى ولا يقصد به أبداً الإساءة لأى حاكم أو شخصية عربية.

وطوال فترة الحوار ظل يذكر عبد الناصر بكل الخير. ويلتمس له الأعذار. وعن نتائج مؤتمر جدة قال بوضوح إنه حريص مثله فى ذلك مثل الرئيس جمال على حل المشكلة اليمنية التى وصفها بأنها تطورت وأصبحت أكثر تعقيداً. وطوال الحديث لم تتغير نبرة الملك وظل هادئاً ووقوراً ورائعاً ونبيلاً وصبوراً.

وبعد أن طرحت أسئلتى الرئيسية تبيننت أنني قد مكثت طويلا وأنه آن الأوان للتوقف حتى وإن كانت هناك أسئلة لم أ طرحها بعد.

وشكرت الملك بحرارة وغادرت مجلسه وأنا أشعر بالامتنان فالحوار مع الملك فيصل والذي يعد أول حوار مع حاكم عربى بالنسبة لى يمثل خطوة رئيسية ومهمة على طريقى المهني وكنت فى تلك اللحظة أراه إنجازا كبيرا.

ورأيت أن أعجل بالعودة إلى القاهرة ولكن بعد أن أزور قبر الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فقد كنت قد اعتمرت أكثر من مرة ولكن لم أقم بمثل هذه الزيارة. ومن الرياض توجهت إلى المدينة المنورة ومن هناك عدت إلى جدة وعلى أول رحلة طيران ، كانت العودة إلى القاهرة، كانت الطائرة تحلق فوق السحاب وكنت أحلق فى سماء الأحلام والأمانى.

□□□

الفصل الثاني

عبد الناصر وأنا.. وجهها لوجه للمرة الأولى

بعد أن تمكنت من إجراء حديث مع الملك فيصل قررت التعجيل بالعودة إلى القاهرة سعياً وراء نشره وقطف ثمار هذا النجاح فالحديث كان الأول للملك منذ اللقاء مع الرئيس جمال عبدالناصر بمدينة جدة في أغسطس عام ١٩٦٥م والذي تم نتيجته بتوقيع اتفاقية لإنهاء المشكلة اليمنية التي استنزفت موارد مصر الاقتصادية وتحولت إلى مستنقع كبير لمصر وقواتها المسلحة وبالرغم من اللقاء مع مسئولين سعوديين آخرين، إلا أن التعجيل بنشر حديث الملك هو الأكثر جدوى.

وتعجيلي العودة كنت أعرف أنني سأفتقد الصحبة الجميلة للفنان سعد عبدالوهاب جارى فى الفندق، وكان قد قرر تجربة حظه فى السعودية بعد نجاحه فى مصر وكنا نجتمع أحياناً فى المساء مع عدد من أصدقائه من البيت السعودى وغيرهم من نجوم المجتمع فى جدة من المصريين والسعوديين وبمثل هذه الصحبة تضاءلت مشاعر الغربة طوال فترة الزيارة.

وخلال هذه الفترة كان من الصعوبة بمكان إجراء اتصال تليفونى وإملاء الحديث أو أى تقارير صحفية كما أن إرسال المادة الصحفية بالفاكس لم يكن متاحاً لأنه لم يكن قد تم التوسع فى استخدامه مثلما هو الحال الآن ومع أنه كان فى إمكانى اللجوء إلى السفارة المصرية لإرساله عبر شبكتها اللاسلكية إلى مقر الوزارة بالقاهرة ومنها يتم إرساله إلى الجريدة إلا إننى لم أكن أريد للسفارة أن تعرف بما دار بينى وبين الملك السعودى. لذا كانت العودة هى الاختيار الأنسب.

وكننت أحمد الله سرا وعلنا على لقاء الملك السعودى والفوز بهذا الحديث ولأنه وفقنى إلى إنجاز يجعلنى أشعر أننى لم أخذل هؤلاء الأساتذة والزلاء الذين رشحونى بالإجماع فى مجلس التحرير للسفر فى هذه المهمة. ووفقاً لما أجرته من حسابات رأيت أن الحديث

صالح جدا للنشر. بل يعد خبطة صحفية كبيرة خاصة أن ما ورد على لسان الملك فيصل من مديح وتقدير للرئيس جمال عبدالناصر يعد قوة مساندة لفكرة النشر ومثل هذه الحسابات كانت تفتقد للخبرة الصحفية والفهم الجيد لمجريات الأمور والأهم فهم شخصية الرئيس عبدالناصر بكل عمقها وأبعادها وجوانبها الظاهرة والخفية.

كان العود مازال أخضر وقد تغلب الطموح والحماس على ما أجرته من حسابات، أما حسابات مصطفى أمين فكانت أكثر عمقا وأبعد أدراكا فقد توقع أن الرئيس سيكون له موقف آخر، والاحتمال الأرجح إن لم يكن المؤكد أنه سيرفض نشر مثل هذا الحديث. وكان مصطفى «بك» على بينة من أن ما جاء على لسان الملك سيضئ للرئيس أبعادا كانت خافية عليه وسيكشف له جوانب جديدة في شخصيته بالإضافة إلى إزاحة الستار عن صور من حنكة فيصل.

أما صورة الملك العف اللسان المتسامح الذى يتجاوز عن الإساءات التى نالت منه علنا والتى وردت فى خطب الرئيس عبدالناصر ومنها «ننتف ذقنه» ويزجى المديح فى الوقت نفسه لمن أساء إليه ويلتمس له الأعذار فقد رأى مصطفى أمين بخبرته وفطنته وحصافته وذكائه أنها تدعم صورة الملك فيصل لدى المصريين والعرب وتضيف إليها عددا من الصفات الايجابية وأن ذلك سيكون خصما من رصيد عبدالناصر ومن ثقة الجماهير فيه، كما أن النشر سيجعل من المقارنة، بين من يشتم ومن يمدح ومن تجرى على لسانه الألفاظ النابية والملك العف اللسان، ما لا يريده الرئيس المصرى حرصا منه على صورته الجماهيرية ومكانته، وأيضا على سياسته وتوجهاته التى تتصادم مع سياسة الملك والمملكة.

لذا قرر إرسال الحديث كما كتبتة لكى يطلع عليه عبدالناصر ويقرر ما يراه. كنت جالسا على مقعد أمام مكتب مصطفى أمين وأحاول أن أقرأ ملامح وجهه وهو يقرأ ما كتبت. فى أحيان كنت أراه مندهشا وأحيانا أخرى ينظر إلى نظرة سريعة مشفقا على ومرة أخرى معجبا بتلميذه وفى النهاية قال بعد أن أبدى إعجابه بما كتبت. إنه يجب أن يرسل الحديث للرئيس عبدالناصر وطلب منى ألا أغادر المبنى دون أن أخبره، واستجبت لطلبه، وظللت أترقب نتائج إرسال الحديث للرئيس بقلق وتوتر وخوف وكنت أتساءل وأين الخطأ؟ تبخرت وبسرعة أحلام النشر، وتبعثرت ثمار الإنجاز، ولم يبق سوى الوسواس والمخاوف واستعدت ما كتبت مئات المرات ولم أجد سببا لما أعانيه من مخاوف، ولكن

القضية ليست ما أراه بل ما يراه عبدالناصر وبعد فترة وجدت أصواتا كثيرة تنادى ، عبده «مصطفى بيه عايزك» فصعدت إلى الدور التاسع حيث يوجد مكتبه وما أن فتحت الباب حتى طلب منى التوجه بسرعة إلى مكتب الرئيس بمنشية الكبرى.

وطوال الطريق تناوشتنى المخاوف وتعددت سيناريوهات هذا الموقف الذى لم أتوقعه ولم أحسب له حسابا وكنت بين الحين والحين أطمئن على وجود شريط التسجيل الخاص بالحوار فى جيبى ووجود فواتير الإقامة فى كل الفنادق التى أقمت بها خلال هذه الزيارة سواء فى جدة أو الرياض أو المدينة ، وكنت أحمد الله على أنه ألهمنى أن اشترى جهاز تسجيل قبل لقاء الملك واستئذان الملك فى تسجيل الحوار فعلية التسجيل والاعتماد عليها فى الكتابة وعدم الخروج عنها والاعتماد دائما على ما قاله الملك حرفيا ستؤكد أننى قابلت الملك وأن الحوار، كما كتبته موجود ومسجل كما أن الفواتير ستدحض أية ظنون أو شكوك حول الزيارة، وفى النهاية لم أجد أفضل من التسليم لله وقراءة القرآن.

وعندما وصلت منشية الكبرى، مررت بأسوار الأمن الذى كان لديها نبأ عن وصولى. ومن صالة أو مكتب انتظار إلى مكتب آخر إلى أن وصلت إلى مكتب سكرتير الرئيس الذى استقبلنى بجفوة واضحة وبعد قليل أى بعد أن فرغ من النظر فى أوراق أمامه والرد على عدة مكالمات تليفونية تحدث إلى مهاجما الحديث الذى أجريته مع الملك فيصل بقسوة وامتها من يفعل ذلك بخدمة السياسة السعودية المعادية لمصر والرئيس جمال.

كان يتحدث وهو يضغط على الحروف والكلمات ثم تساءل عن الأسباب التى دفعتنى إلى ذلك؟ ولماذا ذهبت أصلا إلى هناك؟ ووصل الموقف إلى ذروته عندما قال إن السعودية على استعداد لدفع الكثير من المال لكل من يقف موقف العداء من الرئيس جمال، وآثرت الصمت وإن تساءلت بينى وبين نفسى أهذا هو أول القصيدة؟! وظللت أتقلب على جمر القلق والغضب مما قاله سكرتير الرئيس، وكثيرا ما فكرت فى الرد على هجومه إلا أن الأمر لم يتجاوز حدود التفكير، وبعد فترة لم تطل طلب منى هذا السكرتير أن أتوجه إلى مكتب «سيادة الرئيس».

وبعد أن دلفت من الباب وجدت نفسى أمام الرئيس مباشرة، صافحنى الرجل وهو ينظر بعينيه الناظتين فى عيني وكأنه يحاول قراءة ما أفكر فيه.

الرجل قوى الشخصية بلا جدال ويمتلك قوة حضور طاغية، ولكنه آسر وقادر على

السيطرة على أفكاره ومشاعره وبود شديد وضع يده اليمنى على كتفى اليسرى ومدّها لتصل إلى الكتف اليمنى وتبينت أن طول قامته ساعده في السيطرة على قدرتي على الحركة وبشكل يتيح له ضبط خطواتي وبدأ في السير بخطى بطيئة داخل حجرة المكتب وطلب مني أن أحكى له قصة لقائي بالملك منذ البداية.

وبدأت أحكى منذ لحظة قرار مجلس التحرير، الذي لم أحضره، بسفري إلى السعودية لمتابعة الموقف في أعقاب اتفاقية جدة وقد حدث ذلك دون طلب مني بأى صورة من الصور بل ولم يكن الأمر مطروحا أمامي لكى أفكر فيه أو أطلبه وقلت له.. ربما شجعهم على ذلك ما حققته من نجاح فى عملي كمحرر عسكري بالإضافة إلى نشاطي خارج هذا المجال ومثابرتي ووجودي بالجريدة طوال ساعات اليوم تقريبا، ومساعدتي أو تطوعي لمساعدة نائب رئيس التحرير المسئول عن الطبعة الأولى وتنفيذ أى عمل يكلفني به إلى أن تدور آلات الطباعة.

ثم قصصت عليه قصة التأشيرة التي تأخرت من شهر أغسطس حتى شهر ديسمبر ١٩٦٥م إلى أن وصلت إلى اللحظة التي وجدت نفسي فيها واقفا وحدي أمام مدخل القصر الملكي بالرياض وسردت بالتفصيل كيف دخلت القصر وسرت فى ردهاته وممراته إلى أن وصلت إلى اللحظة التي دخلت فيها مكتب الملك وكيفية إجراء الحديث وظل الرئيس واضعا يده على كتفى بمودة شديدة ونحن نقطع حجرة المكتب سيرا على الأقدام فى خط دائرى وبعد أن وصلت إلى النهاية طلب مني أن أعيد عليه ما حدث مرة أخرى ثم طلب ذلك للمرة الثالثة.

كان الرجل يستمع بتركيز شديد ونادرا ما تدخل بسؤال استفسارى. وكان كلما طلب أن أروى له القصة أرويه بحماس وإن خمنت أنه يبحث عن ثغرة أو تناقض أو تعارض فيما أرويه يمكنه منها أن يحطم روايتي ويكتشف كذبي لو كنت كاذبا، بعدها توجه للجلوس إلى مكتبه وأشار إلى أن أجلس ثم أمسك بالأوراق التي كتبت عليها حوارى مع الملك وسألنى عما قاله كل من الأمير عبدالله الفيصل والمستشار كمال أدهم فذكرت له ما قاله بالتفصيل وردى عليهما ثم سألتنى ولماذا رويت للملك ما قاله، ولماذا سألته عن ذلك؟ فقلت للرئيس لقد أردت ببساطة أن يعرف الملك أننى التقيت بشخصيتين هامتين فى المملكة وأن لهما موقفا سلبيًا وسيئًا تجاه النظام والرئيس المصرى وأنهما لم

يتورعا عن إعلان ذلك أمامى كصحفى مصرى، كما أردت أن أسمع رده على ذلك فسألنى عما إذا كنت قد شعرت بالخوف فى أى لحظة خاصة وأننى وحدى هناك، فأجبت بأننى كنت أؤدى عملى بكل ما يفرضه علىّ من مسئوليات والتزامات، ولم أفكر فى الخوف إطلاقا ولو كنت قد خفت لما رددت عليهما فورا ولما نقلت ما قالاه للملك.

ثم سألتنى عما إذا كنت وصلت إلى مكتب الملك دون أن يعترضنى أحد فعلا أو حتى يسألنى من أنا؟ أو إلى أين أنا ذاهب؟ فأكدت له أن أحدا لم يستوقفنى ولم يسألنى وتذكرت أنه حتى مدير مكتب الملك لم يطلب أن يرى أى وثيقة تثبت من أنا أو أين أعمل؟ وكان واضحا أن الرجل يحاول أن يكتم دهشته من مثل هذا الأمر.

بعدها سألتنى عما إذا كنت قد سجلت الحديث فأجبتة بالإيجاب بسرعة من يبحث عن النجاة من الغرق، وواصلت قائلا كما أن معى الفواتير التى تثبت أننى أقمت على حسابى طوال فترة الزيارة وسلمته شريط التسجيل والفواتير وبسرعة ألقى نظرة على الفواتير ثم أعادها لى ثم قال سنسمع معا الحوار ووضع الشريط فى جهاز تسجيل كان موجودا بجواره، وبدأ يستمع لنص الحوار بين الحين والحين كان يوقف الاستماع ويسألنى عن رد فعل الملك وملامح وجهه فأجيب بأمانة وبقدر ما تسعفىنى الذاكرة. ومرات أخرى أوقف شريط التسجيل ليستفسر عن فقرة أو جملة ما، وكنت أسترسل فى الحديث حتى يدرك ويقتنع أننى لا أخفى شيئا، وبدا أن الرئيس قد عرف كل ما كان يريد أن يعرفه وأنه وجد إجابات لكل الشكوك التى دارت بخلده.

وخلال استماعه للفقرة التى أخبرت فيها الملك فيصل بأن ابنه وصهره سيعملان على أن يركع عبدالناصر وأننى قلت لهما إنه لن يركع. ابتسم ابتسامة رضا، وكان واضحا أنه يقدر جيدا الموقف الذى كنت فيه، ومع ذلك لم أتردد فى أن أعلن رأى ولكنى لم يتوقف ليسألنى. لقد سألتنى من قبل وسمع منى إجابة، وربما لو سأل مرة أخرى لقلت له إننى كنت أدافع عن رئيس مصر وعن رمزها فى تلك اللحظة ولم أكن أدافع عن شخص الرئيس بل عن مكانه ومكانته.

ووصل عبدالناصر إلى ما يريد فابتسم فى النهاية وهو يشكرنى على شجاعتى وأمانتى، ثم بدأ يسألنى عن عملى وعن دراستى فأدركت أنه طلب معلومات عنى قبل أن يستقبلنى، ثم قال إن الحديث عمل صحفى ممتاز وخاصة لصحفى فى سنواته الأولى واستطرد قائلا،

أننى تحدثت وحاورت الملك فيصل كصحفى «فاهم شغله»، وبالرغم من كل ما فعله الرئيس لبث الاطمئنان فى قلبى منذ اللحظة التى دخلت فيها مكتبه للمرة الأولى فى حياتى فإننى لم أشعر بالاطمئنان حقيقة إلا وهو يوجه لى الشكر، ومع ذلك كان هذا الاطمئنان مشوبا بالحدز.

ثم سألتنى عما إذا كنت سأحزن كثيرا إذا لم ينشر هذا الحديث، فأجبتة قائلا إن مصالح مصر أهم من أى حديث صحفى فقال أنه يرى عدم نشره ثم أخبرنى إنه سيحتفظ بالشريط وعندما وقف إيذانا بانتهاء اللقاء ومد يده ليصافحنى مودعا سألته وإلى أين سأذهب؟ فابتسم وعلى وجهه ملامح حيرة وسألنى ماذا أقصد؟ فقلت له إن بعض الزملاء فى الجريدة قد قالوا لى وأنا فى الطريق إلى سيادتكم إنهم سيشترون لى خبزا وحلاوة، فضحك الرجل وقال هذه المرة ستعود إلى عملك ومنزلك وضحك من جديد.

ووجدت الفرصة سانحة لأخبره أن سكرتيه قد أوقع الرعب فى قلبى ربما بصورة أكثر من زملائى بالعمل قبل أن أنال شرف اللقاء فاستوضح الأمر فرويت له ما قاله سكرتيه فاتصل به طالبا حضوره وسأله بغضب واضح عما إذا كان قد قال ذلك؟ فصمت الرجل فوبخه توبيخا شديدا ووجه له اللوم وقال له أن الأستاذ عبده أدى عمله بوطنية وبكفاءة وشجاعة ولو أن الكل فعلوا مثله لتغيرت الصورة كثيرا، ثم أمر بأن أعود إلى جريدة الأخبار فى سيارة من سيارات الرئاسة، وأدركت فى هذه اللحظة أننى كسبت عدوا قويا بمكتب الرئيس وأن الرجل لن ينسى ولن يغفر ذلك أبدا.

وبعد أن خرجت إلى شارع الخليفة المأمون، سألتنى السائق إلى أين؟ وبسرعة طلبت منه التوجه إلى فندق شبرد فلم أكن أريد العودة إلى الجريدة قبل أن أرتب أفكارى. ولقد كنت أتردد على صالة فندق شبرد القديمة لاحتساء الشاي وسماع عزف البيانو والكتابة أو القراءة ولم يكن الأمر يكلف سوى أقل من ٢٥ قرشا وقتذاك وبهذا القرار تجنبت أسئلة السائلين واستفساراتهم.

ورأيت بعد إعادة النظر فى الأمر أنه ليس من حقى أن أبوح لأحد بما قاله الرئيس لى لأنه أمر يخصه وليس من حقى إفشاؤه، ولكن كان من الضرورى الاتصال بمصطفى أمين لإبلاغه بأن الرئيس قرر عدم نشر الحديث وأننى سلمته شريط التسجيل، وطوال الأيام التالية تعمدت البقاء بعيدا عن دار أخبار اليوم وعن منزلى تجنبا لأى أسئلة من أى كان. واغتتمت الفرصة

لتكثيف نشاطى بالقوات المسلحة وزيارة أكبر عدد ممكن من القادة خاصة خارج القاهرة. وخلال الأيام التالية للقاء الرئيس عبدالناصر تذكرت علاقتى التى توثقت خلال النصف الأول من الستينيات بالمشير عبدالحكيم عامر وإن مثل هذه العلاقة لا يمكن أن تغيب عن عبدالناصر وستثير أمامه الكثير من علامات الاستفهام وقلت ربما أسهمت هذه العلاقة فى مضاعفة شكوك عبدالناصر فى الحديث الذى أجرىته مع الملك فيصل خاصة إذا اقتنع أننى من معسكر المشير عامر، وكان الرجلان قد اختلفا بعد الانفصال السورى عام ١٩٦١م وتحول الاختلاف إلى صدام عندما قرر الرئيس عبدالناصر تشكيل مجلس للرئاسة عام ١٩٦٢م يضم بجانب المشير عددا من أعضاء المجموعة البيولوية والسياسيين المدنيين وبما كان يعنى أن المشير لم يعد نائبا أول لرئيس الجمهورية ولجأ المشير إلى الاختفاء فى مرسى مطروح وقرر قادة الأفرع الرئيسية من كبار القادة التوجه إلى مرسى مطروح والبقاء بجوار المشير. وكان يسيرا أن يفهم عبدالناصر أن ما جرى هو انقلاب عسكري سلمى عليه وأن القوات المسلحة قد انحازت إلى المشير فى الصراع الدائر بينهما، فقرر التراجع عن موقفه وألغى مجلس الرئاسة وعمل على استرضاء المشير وتقاسم معه النفوذ والسلطة وتساوى كلاهما فى المخصصات المالية التى يحصلان عليها وبما يؤكد للجميع أنهما فى مستوى قيادى واحد. وبما أن الرئيس كان يحاط علما بعلاقات المشير عامر ويعرف كل من يتردد عليه وبما أنه طلب معلومات عنى قبل أن يستقبلنى فقد رأيت أن ذلك ربما ضاعف من شكوكه قبل أن يرانى ويسمع منى وربما كانت محاولته للعثور على ثغرة فى روايتى انعكاسا لهذه الشكوك وربما لم يكن الأمر كذلك ولكنى فكرت فيها كمجرد احتمال.

المهم أن المحصلة النهائية أن الرئيس تأكد من حسن نيتى وإلا ما شكرنى بهذه الحرارة وكان الأمر فرصة سنحت لكى يعرفنى الرئيس شخصيا، هذه المعرفة وبالصورة التى تمت بها تركت بصماتها على كل ما جرى بعد ذلك من احتكاك مباشر أو غير مباشر بيننا.

□□□

الفصل الثالث

مدنى فى وحدات الكوماندوز.. خلف خطوط العدو

بعد تجربة اللقاء الأول بالرئيس جمال عبدالناصر. قضيت وقتا طويلا أراجع وأتأمل ما جرى، وكثيرا ما عدت للمثل المصرى الجميل الذى سمعته من والدى ومن أمى رحمهما الله عشرات بل مئات المرات ألا وهو.. «امشى عدل يحترار عدوك فيك» ولا أقصد هنا أن عبدالناصر هو العدو أبدا، بل كان الرئيس الذى يبحث عن خطأ ما فى الحوار الذى أجرته مع الملك فيصل، وما سبق وواكب وأعقب هذا الحوار من أحداث وملابسات. انتهى اللقاء بصورة إيجابية للغاية بالنسبة لى حتى ولو كنت قد حزنت على عدم نشر الحوار، وما كان يمكن أن يضيفه لى فى مشوارى المهني، ولكن الخروج بسلام كان أفضل آلاف المرات من نشره.

وكانت هناك ضغوط ومحاولات كثيرة من رؤسائى وزملائى لمعرفة ما جرى مع عبدالناصر، وكنت أردد على مسامع الجميع مدى حزنى لأنه رفض النشر، وكفى. وكنت أعلن فى بعض الأحيان، قائلا، لا بد أن لديه أسبابا قوية لعدم نشر هذا الحديث. ولم يكن وهو الرئيس ليبوح بهذه الأسباب لصحفى فى بداية الطريق. أما مصطفى أمين فلم يسألنى قط، ولا بد أنه لاحظ أننى تغيبت عن الجريدة لعدة أيام. وأن التليفون كان وسيلتى لإملاء ما لى من أخبار أو موضوعات. مرت التجربة. وكنت على اقتناع أنها غير قابلة للتكرار. وأننى لن ألتقى بعبدالناصر مرة أخرى.

ودارت الأيام. وانشغلت بعملى ودراستى وقراءتى وبالسفر إلى اليمن بين الحين والحين. ولم أكن أتوقع أن مشروع السفر للدراسة سيترك بابى فى العام نفسه عام ١٩٦٦م، وأنه سيفتح الباب لتجربتين متتاليتين للاقتراب من عالم رئيس الجمهورية. وكنت قد طرحت فكرة السفر للدراسة على الأستاذ جلال الحماصى، وخلال مناقشتها، أوضحت له أننى درست القانون الذى أحببته، واخترت الصحافة المهنة التى لم أرض بها بديلا، ولهذا فإننى أتطلع للسفر لدراسة الصحافة دراسة أكاديمية ومتعمقة.

وقبل أن ينتصف العام أبلغنى أنه رشحنى للسفر للدراسة ببرلين عاصمة ألمانيا الشرقية، وعلق قائلاً، إنها دولة شيوعية، فأجبت قائلاً إن العلم هو العلم أيا كانت القبعة التى يضعها الأستاذ على رأسه.

وخطوة إثر خطوة. انتهت الإجراءات. وسافرت إلى برلين. وانتظمت فى الدراسة مع مجموعة من الدارسين تضم أعدادا من الصحفيين العرب. وبنغمس فى الدراسة وفى تجربة الحياة بأوروبا بكل أبعادها، وبنشط داخل اتحادات الطلبة، ويقع علينا الاختيار لنتحمل المسئولية.

ولأن هناك نقصا فى عدد كبير من السلع فى ألمانيا الشرقية، كنا نرسل واحدا منا كل أسبوع إلى برلين الغربية ليعود ومعه احتياجاتنا من هذه السلع. وصباح الاثنين ٥ يونيو ١٩٦٧م، توجهت إلى برلين الغربية لشراء احتياجات المجموعة، وكنت أفضل دائما التسوق من أكبر مركز تجارى فى برلين الغربية، وربما هو الأكبر فى القارة. حيث يمكننى العثور على كل ما أريد خلال فترة زمنية قصيرة، بعدها أصدق إلى الكافتيريا والمطعم. وأتناول إفطارى وأنا أقرأ الصحف، وأشاهد معالم برلين الجميلة من هذه النقطة المرتفعة.

وعندما وصلت إلى باب هذا المركز التجارى، وجدت لافتة موضوعة على المدخل تقول «ادفع ماركا تقتل عربيا» وأفقت من الصدمة التى لم أتوقعها ومن مشاعر الغضب. وبدأت أبحث عن السبب فى مثل هذه الحملة، فقد استنتجت أن الإعلان أو اللافتة جزء من حملة تبرعات عامة وراءها ما وراءها، ولا بد أن قوى يهودية هى التى أطلقتها.

وأدركت أننى بملامح وجهى العربية يمكن أن ألفت الأنظار لو خاطرت وسألت، وكان على أن أبحث عن موظفة صغيرة السن بلا خبرة كبيرة بالسياسة. وفعلا عثرت على ضالتي، وأخبرتني عندما سألتها عن اللافتة. إن العرب بدأوا الحرب ضد إسرائيل، وأنهم يستهدفون إبادة الإسرائيليين وتدمير الدولة.

إذن لقد بدأت المعركة، ووفقا لتصريحات كبار القادة ورأس الدولة، فإن النصر فى متناول اليد.. هكذا تصورت ثقة منى فى كل ما قاله المسئولون أصحاب القرار وقتذاك. وعدت بسرعة. وأبلغت الجميع باندلاع الحرب.

ومذ رأيت هذه اللافتة وأنا أتساءل، ولماذا لا أنظم حملة مماثلة؟ ولماذا لا يكون الشعار «ادفع ماركا تنقذ عربيا»؟.

واتصلت بالمسؤولين الألمان فى برلين الشرقية، ولم أحصل على إجابة واضحة. فأخبرت من التقيت بهم بالحملة التى انطلقت فى برلين الغربية وبالقطع فى مدن أخرى. وبما أن الدولة تناصر العرب والقضية الفلسطينية وعلى علاقة طيبة بالنظام المصرى وبالرئيس جمال عبدالناصر. فإننى أتوقع الموافقة على انطلاق حملتنا فى ألمانيا الشرقية. وأرجو أن يتحقق ذلك قبل أن يتوقف إطلاق النيران. وقالوا سنعقد اجتماعا. وسنتصل بك ووافقوا. وقدموا المساعدة المطلوبة. ونظموا برنامجا لزيارة المصانع والشركات واجتماعات بمقار الحزب الشيوعى.

وتم تقسيم العمل فيما بين المسؤولين باتحاد الطلبة. وبمباركة السلطة بدأت التبرعات تتدفق. وكان السفر والمؤتمرات والحوارات واللقاءات اليومية تستمر طويلا. ولم نتوقف ولم يمنعنا الإجهاد من الاستمرار وبعد أيام. طلبت منهم أى من الجانب الألمانى مد نطاق الحملة ليشمل برلين الغربية. فاستغربوا الطلب. وأنكروا وجود أى علاقة مع برلين الغربية. وتركتهم يترافعون فى هذه القضية. وبعد أن انتهوا أوضحت لهم أن كل ما أريده هو موعدا للقاء الطالب الألمانى «رودى دوتشكه» الذى يلعب دورا نشيطا فى الأوساط السياسية والطلابية فى برلين الغربية. وأكدت لهم إننى أعلم أن هناك اتصالات بينهم تتم بشكل دورى.

ومرة أخرى قالوا. إنهم سيعقدون اجتماعا وسأسمع منهم فور انتهاء الاجتماع والتوصل لقرار.

وتحدد الموعد المطلوب، وقدم «رودى دوتشكه» لى يد المساعدة لجمع تبرعات لمصلحة مصر فى برلين الغربية. ولم يكتف الرجل بإجراء الاتصالات بالشركات والمؤسسات، بل رافقنى خلال الكثير منها. وكان لدوره وحضوره تأثير كبير على حصيلة حملة التبرعات. وخلال هذه الفترة. كنت أتابع العمل من أجل العودة إلى مصر، بعد أن تبين أن الهزيمة قد حاقت بالجيش المصرى. بالإضافة إلى الجيشين الأردنى والسورى، كانت الصورة مفعجة ببشاعتها ومريرة.

واقترح المسئولون الألمان، بعد أن وصلت حصيلة التبرعات شرقا وغربا إلى أكثر من

مليونى مارك غربى، أن يستبدلوا المبلغ النقدى بحمولة من الأدوات والمعدات والأجهزة والمستلزمات الطبية والأدوية. وقالوا إنهم سيوفرون لنا طائرة تنقلنا إلى العاصمة السودانية الخرطوم. ومنها ربما إلى أسوان لو كانت الظروف تسمح بذلك. والباقى تتولاه السلطات المصرية.

وفوجئت خلال كل ذلك بالسفير المصرى الذى يتحمل مسئولية القنصل العام فى ألمانيا الشرقية لأن مصر لم تكن قد اعترفت بعد بهذه الدولة وبالتالي لم تكن هناك علاقات دبلوماسية بينهما، يطلب منى تسليمه كل التبرعات التى تم جمعها. فسألته: وهل شاركت بأى جهد فى حملة جمع التبرعات؟ لقد تقاعست، ولم تحرك ساكنا. والآن وبعد أن نجحنا، تريد أن تسرق نجاحنا، وتسجل نقطة ثمينة لحسابك فى القاهرة. فرد قائلاً: إنك مجرد طالب بعثة. ولذا فإنه مسئول عنى. وهو الطرف الذى يحق له تسليم هذا المبلغ للمسئولين بالقاهرة، فأجبتته بأنه غلطان جداً، فأنا صحفى ولست طالباً، ثم إننى سأقطع الدراسة وأعود إلى القاهرة. فقال إن التعليمات التى لديه تقضى باستمرار الجميع فى الدراسة. فأكدت له إننى سأعود إلى القاهرة. وسأحمل معى كل ما جمعناه. فاتهمنى بأننى أريد أن أحتفظ بالمبلغ لنفسى. فقلت له: إنك تجاوزت، وستدفع ثمن هذا التجاوز وستعذر لى علناً وأمام كل من يعملون تحت رئاستك، والذين شهدوا هذا الحديث. وتركته لأتوجه إلى برلين الغربية لأتحدث مع سكرتير الرئيس عبدالناصر تليفونياً، وبعد محاولات تمكنت من الاتصال به. وأبلغته بالاقترح الألمانى وبالحمولة الطبية وبالحصيلة التى تم جمعها خلال حملة التبرعات التى نظمناها. وأبدى دهشته من هذا النجاح. وسأل. ولماذا لم يفعل آخرون مثلما فعلت؟

وسمع منى تفاصيل رحلة العودة عبر الخرطوم. ثم نقلت إليه ما جرى مع السفير القنصل العام. فأبدى استياءه. وقال إنه سيتصل بى عن طريق القنصلية لإبلاغى بالقرار فيما يتعلق برحلة العودة. وأن ذلك ربما يكون اليوم أو غداً وعلى أن أتابع ذلك. وأن أنسق مع المسئولين الألمان ثم قال، أما السفير فاترك أمره لى وسأتولاه بعد إبلاغ سيادة الرئيس. وعندما عدت وجدت السفير يبحث عنى، وتوجهت إلى مبنى القنصلية، وهناك سمعت اعتذاراً منه أمام الجميع وأبلغنى أن مكتب سيادة الرئيس قد اتصل، وأن العودة ستكون بالطائرة الألمانية إلى قبرص ومنها ستعود بطائرة مصر للطيران التى ستطير من الإسكندرية

إلى العاصمة القبرصية فى رحلة خاصة لنقل الحمولة الطبية. ثم تحلق للهبوط بمطار النزهة بالإسكندرية.

وتمت الترتيبات مع الألمان. وعدنا إلى الإسكندرية وفقا للخطة الموضوعة. وتسلم المسئولون الشحنة. وكان فى انتظارى سيارة عادت بى إلى منزلى مساء يوم ١٥ يونيو ١٩٦٧م، وقبل منتصف الليل تلقيت مكالمة تليفونية من مكتب رئيس الجمهورية يبلغنى شكره على كل ما فعلته.

وكان الاحتكاك الثانى بالرئيس. أو التجربة الثانية للاقتراب من عالمه بشكل غير مباشر.

وبالنسبة لى لم يكن الأمر مخططا على الإطلاق. ولكنها مجرد حلقات. كل منها تقود إلى الأخرى دون أن تبوح بشىء. إلى أن تصل إلى النتيجة. والتي تعد بصورة أو بأخرى حلقة من حلقات حياتنا. ستفضى إلى أخرى. وهكذا.

وفى تلك اللحظات لم أكن أعرف أو حتى أظن أن هناك اقترابا آخر من عالم الرئيس عبدالناصر.

لقد عدت إلى مصر. وأصبح اهتمامى الرئيسى أن أعرف ماذا حدث؟ وكيف؟

والمعلومات إما عند البشر أو فى وثائق. وكنت مهتما بالاثنتين.

ولم يكن هناك وقت للراحة، وكان من الضرورى أن أزور الجبهة ابتداء من الإسماعيلية وصولا إلى بورسعيد، وأن ألتقى بالقادة الموجودين وأسمع منهم مباشرة. وذلك قبل أن ألتقى بالقادة الكبار أينما كانوا. سواء فى الخدمة أو فى التقاعد بمنزلهم.

والتقيت بالعشرات طوال فترة زيارتى للجبهة، وانطلقت الألسنة تتحدث بصراحة. كان الغضب والسخط والألم والإحساس بالمرارة يسيطر على الجميع. وطالت الاتهامات معظم أهل الحكم والقيادة.

وجاء الدور على القادة، ولم يختلف الأمر كثيرا. وكان المحالون إلى التقاعد الأكثر مرارة خاصة بعد أن تبينوا أن الفريق أول محمد فوزى قد غدر بهم وأن كثيرين يمكن أن يتحولوا إلى كبش فداء.

ومن بين كل هؤلاء سأتوقف أمام المقدم إبراهيم الرفاعى. لأن الاتصال به هو الذى فتح الباب للاقتراب من عالم عبدالناصر مرة أخرى.

هذا المقاتل العبقري. التقيت به عقب نجاحه المبهر فى عملية الهجوم على معسكر الدبابات لقوات الاحتلال الإنجليزى فى مدينة بورسعيد أثناء عدوان ١٩٥٦م، حكى الرجل ببساطة وتواضع تفاصيل هذه العملية الفدائية. وبعد أن انتهى فوجئى وأنا أقول له «ضع فى اعتبارك منذ الآن أننى أقدم منك فى العمل الفدائى، وعلبك احترام هذه الأقدمية» وسألنى باستغراب ودهشة كيف؟ فحكيت له تجربتى كفدائى قاتل ضد قوات الاحتلال الإنجليزى عام ١٩٥١م. ومنذ تلك اللحظة لم تعد العلاقة بيننا علاقة بين ضابط وصحفى بل صداقة متينة. والتقيت به فى اليمن مع قادة قوات الصاعقة هناك والصاعقة البحرية.. وعندما نظمت قيادة قوات الصاعقة طابور سير من مدينة إنشاص إلى بورسعيد فى ديسمبر عام ١٩٦٤م، كان قرارى السير معهم خطوة بخطوة، فالزملاء سيعتمدون على اللقاء بالقيادة، وأعنى قادة الصاعقة وقادة الكتائب المشاركة فى نهاية كل مرحلة. وبالتالي فليس هناك فرصة للتمييز. لذا قررت أن أكون مع الصاعقة طوال المشوار، أفترب من الجميع، وأسمع. منهم ولم يصدق الكثيرون أننى سأصمد، إلا أن إبراهيم الرفاعى قال لهم إننى سأتمكن من قطع المسافة سيرا على الأقدام.

وبدأ الرهان فيما بينهم حول الأمر.

واكتشف قادة الكتائب المشاركة، أن وجودى مع أى كتيبة يجعل نتائجها أفضل، فالضباط والصف والجنود يتابعون مدنيا يسير معهم، وكلهم يحاول أن يكون الأفضل، لذا بدأ قادة الكتائب المشاركة فى مطالبتى بالسير معهم. وقررت أن أفضى يوما مع كل كتيبة. ودخلت بورسعيد مع الكتيبة رقم ١٣ التى يقودها الرفاعى.

وتكرر الأمر فى طابور السير من القاهرة إلى الإسكندرية فى فبراير عام ١٩٦٦م. وكسبت صداقة الآلاف من الرجال. ومن خلال الثقة التى أولاها لى بعض القادة والضباط، بدأت أسمع تفاصيل المحاولات الانقلابية التى شارك فيها بعض منهم.

وتعددت اللقاءات والحوارات والحكايات إلى أن سافرت للدراسة فى ألمانيا الشرقية. وكان منطقيا أن أتصل بالرفاعى بعد العودة، ويسألنى عما إذا كنت قد علمت أنه فى طريقه لتشكيل مجموعة فدائية للعمل خلف خطوط العدو!

ونلتقى ويشرح لى العقبات التى يضعها سعد الدين الشاذلى قائد القوات الخاصة أمامه. ويطلب منه مدير المخابرات تنفيذ عمليتين داخل سيناء. الأولى تفجير تشوينات الذخيرة

التي تركتها القوات المصرية أثناء انسحابها. والثانية نسف قطار كان من المقرر أن ينقل الصواريخ المصرية أرض - أرض من طراز القاهر والظافر لاستعراضها في شوارع العاصمة الإسرائيلية في يوم الاحتفال باستقلال إسرائيل.

كانت العملية الأولى تستهدف حرمان إسرائيل من استخدام كل هذه الذخيرة لتشغيل كل الأسلحة المصرية من دبابات ومدفعية وغيرها والتي تركتها القوات المنسحبة دون تخريبها، وبما يضاعف من حجم السلاح في يد القوات الإسرائيلية. أما العملية الثانية، فكانت حفاظا على الكبرياء والكرامة المصرية التي ستتعرض للأذى من جراء استعراض هذه الصواريخ.

وينفذ الرجل ما طلبه منه مدير المخابرات الحربية. ولا يتوقف الرفاعي عن العمل من أجل إنشاء هذه المجموعة الفدائية.

وأستعيد تلك الفترة الذهبية التي امتدت من أكتوبر ١٩٥١م حتى يناير ١٩٥٢م التي شهدت ميلادى كفدائى يشارك فى العمليات ضد قوات الاحتلال الإنجليزي بمنطقة القناة، ولا شك أن هذه الفترة قد أضافت لى الكثير من الخبرات والمعلومات. وباختصار كانت تجربة فى غاية السخاء والصعوبة. وربما بسبب صغر السن وقلة التجارب، لم أتمكن من تقدير حجم الأخطار التي تحيط بمثل هذا العمل، ولكن كانت القضية الوطنية هي الدافع القوى وراء هذه المشاركة.

هذا الفتى الوطنى الذى حاول بذل الجهد لإنهاء الاحتلال الإنجليزي، استيقظ قويا وعفيا وهو يتابع ما يقوله إبراهيم الرفاعي حول العمل الفدائى ضد قوات الاحتلال الإسرائيلى. وعرضت عليه الانضمام لهذه المجموعة، فيقبل بل ويرحب.

وأناقش الأمر مع مدير المخابرات. وبعد أن يسأل ويدقق ويستفسر، يطلب مهلة للتفكير فى الأمر.. وفى النهاية أتقدم بطلب التطوع فى صفوف مجموعة الكوماندوز التى يقودها الرفاعي بالصفة المدنية. ويوافق الرفاعي على طلبى، ويكتب تزكية يؤكد فيها أننى سبق أن حصلت على دورة تدريبية بوحدة الصاعقة وبمدرسة القفز بالمظلات. وأن لياقتى البدنية عالية، وروحي المعنوية قوية. كما أننى شاركت فى طابور السير الأول بالصاعقة من إنشاص إلى بورسعيد والثانى من القاهرة إلى الإسكندرية.

وأحمل أوراقي إلى اللواء صادق. وقبل أن يوافق، يقترح عليه نائبه اللواء محرز

عبدالرحمن أن أوقع إقرارا بأن القوات المسلحة غير مسئولة عنى فى حالات الأسر أو
القتل أو الإصابة أو الاستشهاد، ولأقطع الطريق أمام مناورة اللواء محرز، أكتب الإقرار
وأوقعه. ويقرر مدير المخابرات الاحتفاظ به فى مكتبه. ويوافق على طلب التطوع. ومن
بعده يوافق الفريق عبدالمنعم رياض رئيس أركان حرب القوات المسلحة. وأصعد إلى الدور
الثانى بمبنى وزارة الحربية للحصول على موافقة الوزير الفريق أول محمد فوزى، والتي
تصورت أنها مضمونة، إلا أنه يرفض الطلب. ويسألنى: هل تريد أن تعرف المزيد من أسرار
القوات المسلحة؟ ويواصل قائلاً. إننى أرفض مثل هذا الطلب؛ حتى لا أفتح أمامك مزيداً
من الأبواب للاطلاع على أسرار عسكرية. فأوضح له أن مدير المخابرات الحربية، الرجل
المسئول عن أمن وأسرار القوات المسلحة، قد وافق وأن رئيس الأركان فعل الشيء نفسه.
وأعتقد أن قضية الأمن والأسرار لم تغب عنهما. فيقول بحسم: إننى القائد العام، وأرفض
طلب تطوعك. فاستأذنه فى عرض الأمر على الرئيس عبدالناصر باعتباره القائد الأعلى
للقوات المسلحة وأوضح له، أننى بعد أن قطعت هذا المشوار لن أستسلم أمام رفضه، وفى
البدائية والنهائية فأنا لا أطلب ميزة ولا أسعى وراء مطمع، بل أسعى للمشاركة فى العمليات
خلف خطوط العدو من أجل بلدى، لا من أجل شىء آخر. ويسألنى، وهل تتوقع أن
الرئيس سىأخذ بوجهة نظرك ويتجاهل موقف وزير الحربية؟ وأجيبه قائلاً، إننى أسعى،
إنه مجرد سعى لا أكثر ولا أقل.

وأخرج من مكتبه. وأتوجه إلى مكتب مدير المخابرات الحربية، وأنا فى حالة من الغم
والحزن العميق لموقف الوزير. فيخبرنى بعد أن قصصت عليه ما جرى، إنه هو الذى
سيعرض الأمر على الرئيس عبدالناصر.

ويستغرب الرئيس موقف الفريق أول فوزى. ويوضح للواء صادق: إن اشتراك مدنى فى
عمليات خلف خطوط العدو، سيكون أحد العوامل المؤثرة فى شحذ همة الرجال بالجبهة
ورفع معنوياتهم. وسيسأل كل رجل نفسه: إذا كان هناك مدنى يفعل ذلك، فإنه يمكنهم
أيضاً تنفيذ عمليات خلف خطوط العدو. ثم قال بوضوح: إن دور عبده مباشر كمتطوع مدنى
بالكوماندوز لن يختلف عن دور الشئون المعنوية.

ويحسم عبدالناصر الأمر. ويقرر قبول تطوعى بالصفة المدنية بوحدة الكوماندوز التى حملت
فيما بعد اسم المجموعة ٣٩ قتال.. وبعد عودته من لقاء رئيس الجمهورية، يقول لى: إن مثل

هذا الاستثناء ليس له سابقة فى التاريخ المعاصر للقوات المسلحة. فلأول مرة يوافق رئيس الجمهورية على اشتراك مدنى فى العمل الفدائى العسكرى. وأكد أن الرئيس بالضرورة سيتابع ، وسيحرص على أن يعرف ، هل كان على صواب فى تقديره للموقف أم لا؟ ويطلب منى ومن أجهزة أخرى معرفة رد فعل اشتراكك فى عمليات داخل سيناء بين القوات الموجودة بالجبهة.

ونصحنى بأن أضع فى اعتبارى دائما أن كل ما سأقوم به داخل هذه المجموعة مرصود. فليس من المؤلف وجود مدنى وصحفى بين المقاتلين وما يتداولونه من معلومات وأسرار، وباستثناء غير مسبوق من رئيس الجمهورية القائد الأعلى للقوات المسلحة. وأمر الرفاعى بإعادة تأهيلى لما أنا مقبل عليه. وعندما حان الوقت للاشتراك فى العمليات ، طلب منى الرفاعى خلال العملية الأولى أن أبقى بجواره طول الوقت. وقد نفذت الأمر حرفيا.

□□□

الفصل الرابع

محاولة انقلابية من داخل المجموعة ٣٩ قتال

بدأت أشارك في العمليات خلف خطوط العدو في سيناء. وبدأت أعلم أن الرئيس عبدالناصر بعد أن يعلم بعودة الدورية من سيناء، وإنجاز مهمتها القتالية، يتصل تليفونيا بالأستاذ هيكل ليخبره أن «عبده وصل بسلامة الله» وإذا كان رئيس تحرير الأهرام قد ذهب إلى منزله واستغرق في النوم يترك الرسالة مع سكرتيرته أو مديرة مكتبه القديمة نوال المحلاوى.. وعندما غابت نوال عن العمل فترة بسبب وجودها في المعتقل على ذمة التحقيق في قضية أمن قومي. كان يترك الرسالة مع الأستاذ محمود عطاالله الذى حل محلها في العمل بمكتب الأستاذ هيكل وعندما التقينا في العاصمة البريطانية أنا والصدیق حسنى إمام مدير مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط فى لندن ومدير مكتب وكالة الأنباء الكويتية فيما بعد مع الصدیق محمود عطاالله الذى اختار الانضمام لأسرة تحرير جريدة الشرق الأوسط فى لندن، روى لنا محمود تفاصيل هذه الوقائع. وكان مازال فى حالة دهشة من مثل هذا الاتصال التليفونى الذى تحول إلى تقليد فى أعقاب كل عملية فدائية، وقال معقبا، إن عبدالناصر كان يتصل للإبلاغ عن عودة «عبده» بالسلامة، ولم يقل أبدا إن المجموعة الفدائية قد عادت بالسلامة، ولم يحاول أن يحكى لهيكل شيئا عن العملية التى تم تنفيذها.

وإذا ما اتصل عبدالناصر ورد على المكالمة محمود عطاالله وعرف منه عبدالناصر أن هيكل نائم، كان يصبر على عدم إيقاظه. ويرجو إبلاغه بالمكالمة وموضوعها. وفى كثير من الأحيان كنا نعود من سيناء فجرا أو بعد الفجر أو قبله بقليل. وكان الرفاعى عندما يجرى اتصاله التليفونى بمدير المخابرات يجده مستيقظا وكان اللواء محمد صادق يعرف أن الرئيس لن ينام قبل أن يطمئن على عودة الدورية، ويسمع ملخصا لما قامت به، وما تحقق من نجاح.

وطوال هذه المرحلة، كان الرفاعى يتوجه من رحلة العودة أيا كانت منطقة تنفيذ المهمة

إلى مكتب مدير المخبرات ويقدم له تقريراً شفهيًا. وفي معظم الأحوال كان يطلب من الرائد طبيب عالٍ نصر وهو التالي له في القيادة ومنى الذهاب معه وفي بعض العمليات الخاصة تلك التي لها طابع خاص كان يتلقى أمراً من اللواء صادق بالتوجه إلى مكتب وزير الحربية ليسمع منه، وفي أحيان أخرى كان يقول، إن الرئيس عبدالناصر في انتظاركم.

وخلال اللقاء مع وزير الحربية، كنت اعتذر عن حضور اللقاء، أما بالنسبة للرئيس عبدالناصر، فقد كنت أحرص دائماً على الحضور. وفي المرة الأولى، سألت اللواء صادق ومن بعده إبراهيم الرفاعي عما إذا كان من اللائق أن أشهد مثل هذه المقابلة وكان رد مدير المخبرات ملفتاً وجديداً ومرشداً. حيث قال، إن القيادات العسكرية لها أسلوب في العرض لا تخرج عنه، أما أنت ولأنك لست عسكرياً محترفاً، فلك أسلوب في الرؤية والتقييم مختلف. وأتوقع أن يطلب الرئيس سماع وجهة نظرك، وعليك ترتيب أفكارك. ثم عقب قائلاً. إنني سأخبر الرئيس عبدالناصر أنك بصحبة الرفاعي أولاً لأعرف هل يريدك مع قائد المجموعة أم لا وثانياً حتى لا يفاجأ بوجودك.

وعندما خرجنا سألت إبراهيم، عما إذا كان يريدني معه، فقال إنه يصر على ذلك، ولفلت نظري ترحيب عبد الناصر بإبراهيم الرفاعي ترحيباً يقترب من التذليل.. وبعد أن أنصت. سألت.. وانتهى اللقاء فأدينا التحية واتجهنا إلى باب الخروج إلا أنه طلب مني البقاء.

وبعد أن أصبحنا وحدنا سألتني عن تجربة القتال بالنسبة لي فأكدت له أنها أفضل ما قمت وأقوم به في حياتي، وأن لهفتي على الاشتراك في العمليات لا تعادلها لهفة بعدها استوضح بعض النقاط.

وفي المرة التالية طلب أن أحكي له حكاية المهمة بالكامل. فرويبت له كل المعلومات والتفاصيل التي أعرفها. وفي النهاية تحفظت بقولي. ربما كانت هناك تفاصيل أو معلومات أخرى ولكن هذا هو كل ما لدى.

ولم يختلف الموقف فيما تلا ذلك من لقاءات. كان يريد أن يسمع مني. وكنت أخبره بكل ما أعرفه، وبكل ما جرى خلال العملية. وفي إحدى العمليات كانت الأمواج في خليج السويس ترتفع إلى ما هو أكثر من مترين وكانت الرياح عاتية خاصة خلال رحلة العودة بعد تنفيذ مهمة ناجحة بمنطقة الطور بسيينا الجنوبية. وأدت هذه الظروف المناخية إلى انقلاب

قارب من قوارب المجموعة. وأمر القائد بألا نترك فردا أو قطعة سلاح فى الماء وبدأنا فى عملية إنقاذ للقارب والأفراد والمعدات والأسلحة فى ظل هذه الظروف المناخية الصعبة. وكنا جميعا فى سباق مع الزمن. أى نريد أن تتم عمليات الإنقاذ وأن نتمكن من العودة قبل أن تبدأ رحلات الاستطلاع الجوى المعادية والتي تبدأ عادة بعد أول ضوء.

ونجحنا جميعا. وتمكنا من العودة مع ساعات الصباح الأولى. واستمع عبدالناصر بإعجاب بقرار القائد، وبقدرة المجموعة على إنجاز عملية الإنقاذ بنجاح رغم كل الصعوبات.

ومنذ البداية تحدثت مع إبراهيم الرفاعى موضحا أننى لا أستطيع أن أروى شيئا عما يجرى خلال الوقت الذى أمكته مع الرئيس، لأن ذلك حقه وحده. وأكدت له أننى سأعرض لأذى كبير إذا ما خاطرت بفقدان ثقة الرجل وتفهم القائد الموقف وقال إننى أيضا لا أحب أن تخذل ثقتى فيك. فكيف أرضى أن تخذل ثقة الرئيس فيك؟

وفى شتاء عام ١٩٦٩م ألقى سلطات الأمن القبض على مجموعة من العسكريين بتهمة الإعداد لانقلاب عسكري وكان من بينهم رائد صاعقة من المجموعة ٣٩ قتال وبدأ الجميع فى مراجعة علاقاتهم بزميلهم المقبوض عليه والتحسب لعملية استدعائهم للتحقيق معهم. وكانت هناك علاقات أسرية واجتماعية تربط بين أفراد المجموعة ولم تكن علاقات الزمالة والصداقة محصورة فى العلاقات فيما بينهم. بل هناك من توسع ومد النطاق ليشمل أسرته.

وكان الرائد حنفى من النوع الهادئ الدمث الخلق الذى لا يثير أية مشاكل مع زملائه أو رؤسائه.

وكان الاستغراب والدهشة هو رد الفعل المباشر للمعلومات التى تناثرت حول المجموعة الانقلابية والأوراق التى تم العثور عليها والصور والتسجيلات التليفونية.

ولم يكن هناك من صدق كل ما صدر عن المصادر الأمنية. وظل هناك أمل أن يكون هناك خطأ ما حول اشتراك الرائد حنفى فى هذه المحاولة.

ولاذ من لاذ بالصمت. وشعر من لم يرتبطوا بعلاقة مع المتهم بفرحة كتموها. فالمهم بالنسبة لهم إفلاتهم من عمليات التحقيق والمراقبة.

وكان البعض قد شعر بوجود متابعات أمنية، وبأن تليفوناتهم قد وضعت تحت الرقابة.

ومنهم من قال: ربما هي المتابعة الدورية بين الحين والحين. وقال آخرون بل هناك شيء ما. وكانت العيون تتابع المجموعة بدقة وتحاول رصد أى خروج على المؤلف ومثل هذا الإجراء الوقائى كان منطقيا ومفهوما. ويتعامل معه الجميع بفهم، ولم يكن يثير أية حساسية. فالقضية هنا لا ترتبط بالثقة أو بالولاء، ولكن بالأمن وبالاحتمالات وبالخواف وقواعد عمل أجهزة الأمن.

وجاءت عملية إلقاء القبض على الرائد حنفى لتؤكد أن الإجراءات الوقائية كانت مفيدة. أما أسبابها فترجع إلى أن هذه المجموعة القتالية كانت تضم العناصر الأكثر جرأة والأفضل تدريبا والأعلى كفاءة وكانت جسارة أفرادها وعلى رأسهم القائد مضرب المثل. كما كان فى مخازنها الكثير من الأسلحة والذخيرة طبعاً فيما عدا الأسلحة الثقيلة المدفعية والمدرمات أى يتوفر لها الكثير من العناصر التى تشجع على الإقدام على عمليات اغتيال أو محاولات انقلابية.

وبلغ من براعة أجهزة الأمن أنها تركته يشارك فى عمليات المجموعة بشكل طبيعى ليشعر أنه بعيد عن الشبهات وعندما توفرت لها الأدلة الكافية، اختاروا أن يلقوا القبض عليه بعد عودته من عملية بمنطقة جنوب سيناء.

وأثناء اللقاء بالرئيس عبدالناصر. عقب العملية التالية. أى بعد مرور عدة أسابيع. جرى الحديث عادياً حول العملية الأخيرة. وأثناء التحية قبل الانصراف سألتنى مباشرة عما إذا كان حنفى قد تحدث معى حول نواياه. فأجبتته بسرعة: لو أنه فعل لأبلغت اللواء محمد صادق فوراً فقال إنه يعرف أننى كنت سأفعل ذلك فعلاً.

ومرة أخرى وبعد أن انتهى قائد المجموعة من عرض تقريره الشفهى على الرئيس وكان الوقت مبكراً طلب الرئيس منى البقاء وبعد أن خرج القائد ونائبه عاد الرئيس واستقر على مكتبه وأنا مازلت واقفاً فى انتظار أن يأذن لى بالجلوس وبعد أن نظر فى بعض الأوراق. وأعطى تعليمات بتنفيذ ما هو مطلوب اتجه بنظره إلى وسألتنى عن رؤيتى للملك فيصل، وفوجئت بالسؤال، وترددت لفترة حاولت فيها فهم السؤال، ولاحظ ترددى، بعدها قلت له: إنها كانت المرة الأولى التى أقابل فيها ملكا، وقد عاملنى بركة كصحفى، وعاتبنى بلا غضب لأننى رفضت الهدية التى قدمها لى وزير الإعلام، ولم يرفض الإجابة على أى سؤال. وللافتات من حصار السؤال وأبعاده، انتقلت بالحديث إلى نقاط أخرى، وقصصت عليه

ثلاثة مواقف واجهتني خلال زيارة السعودية واخترت أن يكون الموقف الأول عن وجود تيارات سياسية يسارية بالمملكة. وحكيت له إنني بعد أن التقيت بالأمر عبد الله الفيصل والشيخ كمال أدهم، وقلت لهما ما قلته دفاعاً عن مصر ورئيسها، وما أبديته من حرص على تحمل نفقات إقامتي وفي فندق خمس نجوم. فوجئت وأنا أتجول بالسوق بشاب يدس ورقة في جيبي ويختفى بسرعة. ومن هذه اللحظة بدأت أول احتكاك بمجموعة من الشباب السعودي اليساري التوجهات. وسرعان ماتم تنظيم لقاء بعد أن شعروا بالأمان تجاهي. وأنى لن أبيعهم للسلطات. وبعد أن أدركوا أننى أثق فيهم مثلما وثقوا هم في. ثم تسلمت منهم بعض المنشورات. وعلمت أن عددهم ليس كبيراً كما أن خبراتهم العملية محدودة، وكذلك قدرتهم على الحركة.. كان ذلك في جدة.

وعلى الطائرة التي أفلتني إلى العاصمة. جلس بجوارى أحدهم، وفي مكتب وزير الإعلام بالرياض، قابلت واحداً منهم ومن خلال هذه اللقاءات أدركت أنهم مصرون على مواصلة العمل وتحمل تبعاته. وعرفت أن السلطات قد اعتقلت عدداً منهم وأن المحكمة التي شكلت لمحاكمتهم قضت ببراءتهم لعدم وجود أدلة تدينهم. إلا أن الملك رفض التصديق على الحكم وأمر بتشكيل محكمة أخرى لمحاكمتهم.

وقلت للرئيس إننى لم أكن أتوقع إطلاقاً وجود تيارات يسارية في السعودية. وأن هذه القيادات رغم قلة الأعداد مصرة على الاستمرار في العمل والنضال من أجل ماتؤمن به. وانتقلت إلى الواقعة الثانية. ورويت أننى خلال إقامتي بالفندق بجدة كنت ألتقى بزائر إنجليزي كلما توجهت إلى الكافتيريا في المساء. فتعارفنا وكنا نلتقى لتناول طعام العشاء ثم ننتقل إلى الكافتيريا لاحتساء القهوة والبيرة الخالية من الكحول ولم يخل حديثه من التعبير عن سخطه للتقاليد والقواعد التي تمنع تناوله الكحول وكان يتساءل لماذا توجد زجاجات الكحول في كثير من المنازل ولا توجد في الفنادق؟

وسألته: ولماذا لاتغادر إذا كان الأمر شاقاً عليك؟ فقال إنه مضطر للبقاء لأنه المسئول عن تنفيذ عقد تسليم المقاتلات القاذفة من طراز لايتننج الإنجليزية الصنع إلى القوات الجوية السعودية. واسترسل في الحديث عن الصفقة وتفصيلها ووجدتني أستمع إلى أسرار بالغة الأهمية. ولم أتردد في التوجه إلى السفارة التي كانت موجودة في جدة وقتذاك. والتقيت بالسفير يحيى عبدالقادر والمستشار سعد مرتضى وأخبرتهما بما قاله الخبير الإنجليزي.

وكانت دهشتها بالغة. فالسفارة كانت تسعى بكل السبل للحصول على هذه المعلومات وها هو الحظ يقودني إليهم ورأيت عبدالناصر يسجل شيئا على الورق الذى أمامه.

ثم قلت له إن الواقعة الأطراف كانت لقائى برجل من حضرموت حضر إلى السعودية وبعد سنوات أصبح من بين الرجال الأكثر ثراء بالمملكة. وهو المالك الرئيسى للبنك الأهلى. وقد روى لى ببساطه ودون أى احساس بالحرج، إنه لايعرف القراءة أو الكتابة، وقد وظف إنجليزيا ليقوم بالتوقيع على الأوراق بالنيابة عنه، وأن كل البنوك فى الداخل والخارج تتعامل مع هذا التوقيع باعتباره توقيعى أنا وبعد سنوات من العمل قررت أن أتعلم كيف أوقع باسمى على الوثائق والمستندات وبعد أن تعلمت أنهيت التعاقد مع هذا الموظف الإنجليزى.. ويضحك كثيرا ومن قلبه، وهو يسألنى هل تصدق أن كل البنوك الداخلية والخارجية بصفة خاصة قد رفضت توقيعى وتصورت أن هناك من يحاول تقليد توقيعى. وتوالت الاتصالات للاستفسار والاستيضاح، ولم أجد مناصا من إعادة الموظف الإنجليزى للتوقيع نيابة عنى وعادت الأمور لتسير فى مسارها الطبيعى.

وقلت: كان يحكى أمام الحاضرين، وأنا منهم وهو سعيد، وضحك الرئيس كثيرا، وأبدى دهشته من أن الرجل بكل هذا الثراء الذى يجعله فى المقدمة ولا يعرف القراءة والكتابة.

كانت المرة الأولى. التى أحكى فيها شيئا للرئيس لم يسأل عنه. فقد كنت دائما شديد الحرص على أن تكون إجابتى على قدر السؤال. وبجمل واضح وقصيرة بقدر الإمكان. كنت أخشى الوقوع فى أى تجاوز أو أخطاء. ولكن السؤال عن الملك فيصل بعد هذا الوقت الطويل وحيرتى قادنى إلى الخروج على النص.

خلال هذه الفترة رأيت الرئيس بالغ الحرص على استجلاء الصورة والبحث عن الحقيقة والنظر فيما وراء التقارير المكتوبة والشفهية وبما يعكس قدرا من الشك فيها، أو فلنقل قدرا كبيرا، وبما يكشف عن ثقة محدودة أو مهترزة فى عدد كبير من المسؤولين. وبدأت أطل لأول مرة على حالة من يقف وحيدا على القمة ومدى معاناته بالرغم من كل السلطة والسطوة والقوة والنفوذ.

ولا أشك أنه كان يثق ثقة كبيرة فى اللواء محمد صادق ويثق فيما يقوله أو يقترحه ولا

ينسى له أنه صاحب الاقتراح ببدء حرب لاستنزاف القوات الإسرائيلية فى سيناء. وعندما تحفظ على الاقتراح موضحاً أن مصر وافقت على قرار مجلس الأمن رقم «٢٤٢» الصادر فى نوفمبر ١٩٦٧م وعلى وقف إطلاق النار بكل ما يترتب على ذلك من مسؤوليات. قال صادق له: إن شبه جزيرة سيناء أرض محتلة وبالتالى فمن حق المواطنين بها مقاومة الاحتلال. ولا يمثل ذلك أى خروج على قرار وقف إطلاق النار.

ومن جانب آخر أحاطه علماً بأنه تم تشكيل منظمة سيناء العربية من أهالى سيناء للعمل ضد قوات الاحتلال وأن كل البيانات سوف تصدر عقب العمليات باسم هذه المنظمة. وهنا يمكن للفدائيين من المقاتلين المصريين العمل بحرية تحت هذه المظلة وسيجرى تلقينهم كيفية التصرف فى حالة الأسر.

كما أوضح صادق له أهمية تحطيم صورة القائد والضابط والجندي الإسرائيلى «السوبر» قبل أن تستقر فى أذهان أفراد القوات المسلحة كنتيجة للهزيمة فى معركة يونيو. وهذه الصورة لن تتحطم إلا بالعمل العسكرى الفدائى الذى ينشب الأظافر فى الجسد العسكرى الإسرائيلى.. وفيما يتعلق بتلك النقطة قام بتذكيره بما فعله القائد الإنجليزى «مونتجومرى» الذى تولى قيادة الجيش الثامن الإنجليزى لمواجهة وصول «الفيلد مارشال» الألمانى «رومل» بقواته إلى منطقة العلمين غرب الإسكندرية بعد معارك سريعة وحاسمة ألحق فيها الهزيمة بالقوات الإنجليزىة وباقى القوات المتحالفة فى شمال إفريقيا. فقد بدأ مهمته بتحطيم صورة «رومل» التى استقرت فى أذهان القوات الإنجليزىة كقائد فذ لايهزم.

وبهذا المنطق فاز بموافقته على بدء حرب الاستنزاف. وبعد نجاح هذه الحرب والنتائج الإيجابية التى حققتها تعاضمت ثقته فى مدير المخابرات الحربىة. وتضاعف إعجابه بإبراهيم الرفاعى. وكان كل من صادق والرفاعى يدرك حقيقة مكانته عند الرئيس.

ومن خلال التجارب وعمليات الاقتراب من عبدالناصر، وتعدد اللقاءات، أخذ يقول للرفاعى منه، لو أن هناك عشرة عبده مباشر لشعرت بالأمان على مصر. قال ذلك لصديق والفريق أول فوزى وللاستاذ هيكى وغيرهم. وكان اللواء صادق هو أول من نقل هذا الرأى لى ومن بعده الأستاذ هيكى أما الفريق أول فوزى فلم يفتح هذا الموضوع معى قط.

وربما لاحظ وزير الحربىة أننى أتجنب قدر الإمكان الحوار معه، وظلت علاقتنا فى حدود ما يقتضيه عملى كمحرر عسكرى ومراسل حربى للأهرام.

ولم يحدث أبدا أننا تحدثنا عن موافقة الرئيس على طلب تطوعى بالمجموعة ٣٩ قتال وهو الطلب الذى رفض الموافقة عليه.

ولا أعلم كيف استقبل ما قاله عبدالناصر عنى ولكنى أعلم أن اللواء صادق كان الأكثر سعادة وشعورا بالرضا وكثيرا ما قال لى إننى لم أخذله وأننى أودى كمتطوع واجبى بصورة مرضية ولكن بعد أن سألتنى عبدالناصر عن الملك فيصل قال لى ونحن فى الطائرة لزيارة قصيرة لليبيا إننى قد اجتزت امتحانا صعبا ولم يقل ما هو أكثر.

□□□

الفصل الخامس

أنا .. ومظاهرات فبراير ١٩٦٨م وعبدالناصر

فى أول بروز جماهيرى ، قال عبدالناصر الذى كان يشغل وقتذاك منصب وزير الداخلية وهو يوجه كلماته للرأى العام «لن أخادع. ولن أضلل. ولن أستجدى» وقد خضنا أى أنا والزلاء والأصدقاء بكلية الحقوق بجامعة الإسكندرية فى نقاش حول هذه الكلمات وتباينت الآراء إلا أن زميلنا النقراشى الجمل علق قائلاً.. إن هذا الرجل كذاب. إنه مسيلمة المعاصر. وتصدينا له جميعا واتهمناه بالكثير من التهم، وانتظرنا أن يغير موقفه، إلا أنه أصر عليه. ولم يكن له من تعليق على أى خطاب يلقيه بعد أن أبعد الجميع، واستقر على القمة، سوى مسيلمة يتحدث وظلنا على خلاف معه. ولم يحل موقفه وعناده دون استمرار صداقتنا كنا نرى الأخطاء ونعيش فى ظل ديكتاتورية عسكرية تعادى الحرية وتحرم المواطنين من حقوقهم، ولكن الآمال فى غد أفضل جعلتنا نقبل بالنظام ورئيسه.

وبلغ منا القبول إلى درجة الانتظام فى دورات منظمة الشباب وأنهينا منها دورتين، وإن عبرنا عن اختلافنا مع المشرفين والمسؤولين بمعسكر حلوان التدريبى للمرحلة الثانية. فقبل انتهاء هذه الدورة التدريبية كانت هناك محاضرة عن الاشتراكية قبل ظهر يوم الجمعة واستمر المحاضر يتحدث طوال فترة قراءة القرآن. وبدأ خطيب الجمعة فى المسجد المجاور يخاطب المصلين من فوق المنبر، واقترب موعد إقامة الصلاة. فوقفت وقلت «الصلاة» ولم يستمع لى. فرفعت صوتى صارخا «الصلاة»، ولم يلتفت أحد لما أقول، واستمر المحاضر يلقي محاضرتة، فخلعت السترة، ولوحت بها واقفا وناديت بأعلى صوتى «الصلاة، إنها صلاة الجمعة»، وأخيرا توقف المحاضر، وانصرفنا إلى الصلاة. بعدها اجتمع المسؤولون بالمنظمة. وقرروا فصلى من المنظمة.

ثم سافرت إلى ألمانيا للدراسة. ثم عدت فى منتصف يونيو ١٩٦٧م. وكنت قد سافرت مقتنعا بنظام عبدالناصر، وعدت بعد أن أصيبت صورته بالشروخ وبعد أن تغير موقفنا على ضوء نكبة يونيو ١٩٦٧م.

وهذا الموقف لم يؤثر على رفضنا للاحتلال الإسرائيلى وللهزيمة التى اقتنعتنا أنها هزيمة

للنظام السياسى لا مجرد هزيمة عسكرية. ولم يؤثر فى إصرارنا على المشاركة فى العمل بكل الصور الممكنة للتخلص من عار الهزيمة.

وكان ما كان. جمعنا تبرعات من ألمانيا من أجل مصر، وتطوعنا للمشاركة فى العمل الفدائى، واقترنا من الرئيس جمال عبدالناصر ومن عالمه.

وفى فبراير ١٩٦٨م، وفى أعقاب النطق بالأحكام الهزيلة الصادرة بعقاب عدد من كبار القادة العسكريين باعتبارهم من المسؤولين عن الهزيمة واندلاع ثورة الرأى العام زارنا صديق قيادى بمنظمة الشباب ليخبرنا أن المنظمة تعد لمظاهرة شبابية صباح الغد، إحداها ستنتقل من جامعة القاهرة فى محاولة لامتناس غضب الناس.

مظاهرة فى شوارع القاهرة. وبعد سنوات ممتدة من القهر لم تتحرك فيها سوى مظاهرات عامى ١٩٥٣م و١٩٥٤م ثم مظاهرة جنازة الزعيم مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد ورئيس آخر حكومة وفدية والتي تحولت إلى حركة احتجاج بالغة القوة. وكان المدهش أن النظام هو الذى سيطلق هذه المظاهرة. ورأينا أنها فرصة لإبلاغ النظام رسالة قوية ليذكر حقيقة مشاعر الناس وغضبهم.

كان الوقت متأخرا عندما زارنا هذا الصديق، ولم يكن هناك بد من التحرك بسرعة إذا ما أردنا استثمار هذه المظاهرة لنعبر عن أفكارنا ومواقفنا. وقمنا ببعض الاتصالات والزيارات. وتمت مناقشة الموقف واحتمالاته. وفى النهاية استقر أمرنا كمجموعة من الأصدقاء على سرقة المظاهرة التى ستخرج من جامعة القاهرة بعد أن يشتد عودها، وتسيطر عقلية القطيع على المتظاهرين.

ومبكرا صباح يوم ٢٤ فبراير كنا هناك مع خطة بسيطة قابلة للتنفيذ. وانتظرنا. وخرجت المظاهرة والتهتافات كلها حول الأحكام التى أصدرتها المحكمة عسكرية، واجتازت أول سور أمنى أمام الجامعة، وسارت فى طريقها إلى أن وصلت بداية كوبرى الجامعة وتمكنت من اجتياز السور الثانى الذى شكلته قوات الأمن المركزى. هنا بدأنا العمل. وقمت بقيادة المظاهرة وتغيير مسار التهتافات إلى هتافات سياسية، منها «يسقط حكم الفرد الظالم» «يسقط حكم المعتقالات» «عايزين حكومة حرة.. العيشة بقت مرة» «عاملين أسود علينا.. واليهود فى سيناء» «لا صدقى ولا الغول. عبدالناصر هو المسئول».

صدقى هو الفريق الأول محمد صدقى محمود قائد القوات الجوية. والغول هو اللواء محمد عوض الغول قائد الفرقة الرابعة المدرعة.

«عايزين صحافة حرة» «حرية.. حرية»

ولأن السور الأمنى عند جامع صلاح الدين بالمنيل كان أقوى من السورين السابقين فقد تركت قيادة المظاهرة للصديق إسماعيل النقيب؛ لكى أتولى قيادة المجموعة التى تنصدر المظاهرة، والاندفاع بها إلى قلب السور الأمنى لأعمل على اختراقه. وفعلا فتحت ثغرة اندفعت منها المظاهرة ونجحنا فى تجاوز هذه العقبة. وكان هناك سور آخر عند نافذة شيم الشافعى. هذا الشارع الضيق الذى يربط الكورنيش بشارع قصر العينى. وبدأ الصراخ.. حرية.. حرية.. حرية.. وبقوة الاندفاع والصراخ إلى حد التشنج والبكاء. شقت المظاهرة طريقها إلى شارع قصر العينى.

وانضم المئات من المواطنين إلى المتظاهرين. وتضاعف عدد المنضمين مع كل متر تقطعه المظاهرة.

وبدا واضحا أن القوات الموجودة ليس لديها أوامر بإطلاق النار على المتظاهرين، وربما لأنهم لم يتوقعوا للمظاهرة أن تصل إلى هذا المدى. لم تكن لديهم تعليمات واضحة بأسلوب التعامل. وربما كان ذلك من أهم الأسباب لاستمرار المظاهرة. واجتزنا شارع قصر العينى، واكتسبت المظاهرة قوة هائلة. وتعالى أصوات النساء بالزغاريد. فى تلك اللحظات تداولنا وبسرعة قرار المضى بالمظاهرة حتى تصل إلى منزل الرئيس بمنشبة البكرى.

وتركنا مسئولية الهتاف للطلبة وقيادات من منظمة الشباب، على أن نظل بجوارهم، ليستمر الهتاف على النحو الذى نريده. وتواصل المظاهرة طريقها حتى تصل إلى شارع رمسيس بعد أن أصبحت أكثر عددا من كل التوقعات. وشارك الواقفون على جانبي الطريق بالتصفيق والتحية، وتعالى أصوات النساء بالدعاء. التف الناس بصورة مدهشة حول المظاهرة والمتظاهرين، ولوح كثيرون بقبضاتهم وهم يرددون هتافات المظاهرة. وكنت أتساءل.. ما كل هذا التأييد؟

إننا ونحن نخطط مساء أمس، لم نحلم أبدا بكل هذه المشاعر التى تفجرت وعبرت عن نفسها بكل هذا الوضوح والسفور والعلانية.

وبعد أن وصلت المظاهرة إلى مستشفى الهلال الأحمر واقتربت من باب الحديد، اختلف

أسلوب تعامل الشرطة بشكل جذرى. وبدون تحذير بدأ إطلاق النيران، وسقط بجوارنا طالب ممن كانوا يقودون الهتافات مصابا بعيار نارى فى الكتف. فحملته أنا وإسماعيل النقيب إلى مستشفى الهلال الأحمر القريب، وأدخلناه من الباب المطل على شارع الجلاء. وسألنا طبيب الاستقبال المناوب عما به. فأجبنا بأنه مصاب برصاصة فى الكتف مجهولة المصدر. لم نشأ أن نخبره بالحقيقة حتى لا يصاب بالفزع ويتعقد الموقف. وبالطبع لم يصدق ما أخبرناه به. فزئير المتظاهرين كان عاليا وصاخبا وكذلك صوت الصدام مع قوات الأمن. فطالبنا بإبراز بطاقتنا الشخصية لتسجيل البيانات المطلوبة وأمرنا بضرورة التوقيع على البلاغ فى السجلات. فأوضحت له بجلاء إننا لن نوقع على أى أوراق ولن نكشف عن شخصيتنا. وإذا أراد أن يعالج المصاب فليعالجه. وإذا لم يرد فسنحمله إلى الخارج ونضعه أمام باب المستشفى لينزف حتى الموت. وليتحمل ضميره وزر ذلك.

وبدا واضحا أنه أمام اختيار صعب. وفى النهاية قال اتركه واخرجا، وشكرا على أى حال.

وخرجنا لنجد بقية الفريق فى انتظارنا لمعرفة ماذا جرى. وقصصنا عليهم ما حدث. بعدها اقترح زميلنا الضبع المحامى الصعود إلى كافيتريا فندق رمسيس لنتناول القهوة ولنطل من هذا الارتفاع على الشوارع المطلة على ميدان باب الحديد لمشاهدة آثار ما جرى. وصعدنا ثلاثة إلى الكافيتريا أنا وإسماعيل والضبع، وعاد الآخرون إلى منازلهم. ومن هذا الارتفاع عرفنا لماذا لجأت الشرطة إلى إطلاق النيران على المتظاهرين، فقد كانت هناك مظاهرة أخرى خرجت من جامعة عين شمس وكانت فى طريقها تقريبا إلى مبنى مجلس الأمة.. مجلس الشعب الآن.. ولأنها قد وصلت أمام المستشفى القبطى بشوارع رمسيس واقتربت جدا من اللقاء بالمظاهرة القادمة من جامعة القاهرة، ولم يكن ممكنا أو مقبولا من وجهة نظر الأمن السماح بالتقاء المظاهرتين للخطورة المتوقعة. لذا تقرر منع هذا الالتقاء بكل السبل.

وقتها أدرك الرئيس خطورة الوضع. وكان فى لحظة من اللحظات قد أمر بإعداد طائرة استعدادا للخروج من مصر. إلا إنه تراجع.

وبعد أن تسلم الرسالة. قرر الإقدام على مجموعة من التغييرات. ويوم ٣٠ مارس أعلن بيانه الشهير الذى وعد فيه بالحريات وبالاستجابة لمطالب الشباب.

انتهت المظاهرة وواصلت حياتى.

والتقيت بالرئيس. مثلما كان الوضع قبل المظاهرة. لا أنا اشرت إلى ما قمت به ولا هو سألنى.

وبعد عدة شهور كنت بمكتب مدير المخابرات الحربية وكانت الساعة تقترب من الرابعة بعد الظهر. وعندما استأذنت فى الانصراف، طلب أن أنتظر ليصحبنى فى سيارته لأن هناك ما يريد الحديث عنه معى. وفى طريق العودة سألنى عما إذا كان عبدالناصر قد سألنى أو تحدث معى عن اشتراكى بالمظاهرة. فقلت له لا لم يحدث. فقال لقد توقعت ذلك، حتى لا يضع عليك ضغوطا من أى نوع قد تؤثر على أدائك خاصة القتالى. وقال: المهم إنه على علم بكل ما فعلت، وقرر ألا يتخذ أى إجراء ضدك أو ضد من كانوا حولك ومعك، وقد تحدث معى بشأنك وقال، إنه يرى أن وجودك كمقاتل خلف خطوط العدو أجدى من وجودك بالاعتقل، فمصر لن تستفيد شيئاً من وضعك وراء الأسوار ولكنها ستستفيد من اشتراكك فى العمليات خلف خطوط العدو.

وقال إنه يفهم أسباب غضبك وغضب الجيل الذى تنتمى إليه. وغضب الأجيال الشابة. وأكد إنه على يقين أنك غضبت لحسابك وليس لحساب هذه القوة أو تلك. وإنك لا يمكن أن تقبل العمل لحساب أحد. وهذه نقطة إيجابية لصالحك. وقد قلت للرئيس إننى أضمن ذلك.

ولا شك أنه يقدر استقلاليتك وهو يقدرها حق قدرها. وقال اللواء صادق: لقد أردت أن تعلم موقف الرئيس منك. وحتى لا يغيب عنك أنه يعلم. ولتعرف أنه لا يريد أن يتوقف نشاطك كفدائى. فرد الفعل على هذا النشاط على امتداد الجبهة إيجابى جدا. ولم أنس له قط ذلك. لقد تصرف كرجل دولة وبقدر عال من الحكمة وضبط النفس وبإعلاء للمصلحة العامة للوطن.

لقد كان من حقه أن يغضب، وكان من الممكن أن يعصف بى. وهذا بالنسبة له أمر يسير. ولكنه كان يعلم أيضا أننى وغيرى كنا على استعداد لدفع الثمن وإلا ما قمنا بما قمنا به. لقد كنا نرى المصورين من حولنا. طبعا بعضهم من مصورى الصحف والتليفزيون. ولكن البعض الآخر كان من كل أجهزة الأمن. ولم نتردد فى قيادة المظاهرة أو فى الهتاف المعادى للنظام وسياساته.

ولقد أدركت أن لي رصيда لدى الرئيس، بدأ بحوارى مع الملك فيصل ثم زاد نتيجة التبرعات الألمانية وتضاعف من جراء نشاطى الفدائى خلف خطوط العدو، ومعرفته بأبنى أعفيت القوات المسلحة من كل مسئولية عنى إذا ما لحق بى أى سوء.

وكان الرجل يقول للجميع إننى «بايع نفسى» كما كان يخبرهم بأبنى رغم تعدد اللقاءات لم أطلب منه شيئاً قط. كما لم يحاول أن يذكر أحدا بسوء.

وكان يستغرب الأمر؛ فكل من يلتقون به لا يذكرون أحدا بخير، ولا ينسون أنفسهم ومصالحهم.

ومع حمدى المتواصل لله على كل شىء وشكرى الذى يلهج به لسانى بل وكيانى كله، كنت وأنا أستعيد شريط الذكريات. أتبين أن الحياة لا تسير فى خط واحد أبدا. لا بد أن يتغير المسار انكسارا وانتصارا. وأنه يجرى الانتقال من الفشل إلى النجاح ومن الصحة إلى المرض فى متوالية لا تعرف التوقف. أما الانحناءات والتراجعات والتعثر فى العقبات فأمر لا بد منه. لا شىء ثابت أو مضمون أو دائم أو مستقر. فنسيج الحياة متعدد ومتباين الألوان.

وعندما أنظر للاقتراب من عالم عبدالناصر. كنت أرى الحسد والغیظ فى عيون كثيرين وأرصد فى الوقت نفسه من يتمنى منه ولو نظرة. ولم يكن كل هؤلاء يعرفون أننى كنت أدعو الله فى كل مرة أن ينتهى اللقاء على خير. لذا كنت أراعى المسافة التى تفصل بيننا دائما. وأتعمد أن تظل فى المربع نفسه. وأن تكون كلماتى محدودة مراعىا وقت الرئيس وانغماسه فى العمل وواعىا أن طول وقت اللقاء قد لا يكون إيجابيا وكنت طوال الوقت أعرف الفرق بين الوطن والرئيس. وهذا ما ساعدنى كثيرا خلال هذه التجربة الفريدة.

وكان الوطن هو الدافع والمحفز لحملة جمع التبرعات فى ألمانيا، وللتطوع للاشتراك فى العمل الفدائى فى سيناء، وللانخراط فى مظاهرات فبراير ١٩٦٨م. لقد قدر الرئيس عبدالناصر ذلك. ولكنى لم أفعل كل ذلك من أجله أو من أجل وجوده على قمة السلطة.

وكان الاشتراك فى المظاهرات هو التعبير الأبرز عن التفرقة بين الرئيس والوطن.

لقد اقتربت من عالم عبدالناصر بقدر ما سمح به هو ولأسباب تتعلق به وبرؤيته وتقديره للأمور. ولكن هذا الاقتراب لم يحل بينى وبين التظاهر من أجل الوطن.

ولم يكن ضميرى ليرضى أو يقبل أن أتقاعس عن التعبير عن رفض سياسات النظام الذى يقوده عبدالناصر ويصنع قراراته وكنت على بينة من خطورة الأمر. ولكن من قال إن القتال خلف خطوط العدو فى سيناء أقل خطورة؟

لقد اخترت أن أمشى على هذه الطرق بالرغم من كل المخاطر التي تحيط بها. ومثل هذه القضايا لم تكن أبدا موضوعا يطرح مع الرئيس، فقد كان له عالمه ووجهات نظره. وكان يعرف مع من يتحدث ويناقد مثل هذه القضايا، وكنت أعلم أنني أنتمي لجيل مختلف أصغر سنا، ولكن له أفكاره ووجهات نظره التي صاغها من مناخ مختلف عن المناخ الذى عاشت فيه أجيال سابقة.

وقد راعيت دائما هذه المسافة التي تفصل بيننا والإطار الذى لا يجب أن أخرج عنه. ولم أخرج عنه سوى مرة واحدة عندما فاجأنى بالسؤال عن الملك فيصل ولم يكن أمامى من مخرج سوى الخروج عن هذا الإطار ولم أكن أعلم أنني سأضطر للخروج مرة ثانية. حدث ذلك عندما أخبرنى أن أم كلثوم قالت: إننى صحفى «كوييس» وشاطر وإن كنت قليل الكلام. وتوقف عن مواصلة الكلام. وكان فى ذلك دعوة لى لى أتحدث. فقلت إننى التقيت بها لأول مرة وتعرفت إليها فى بيت مصطفى أمين وبعد تكرار اللقاء فى البيت نفسه، وجهت لى الدعوة لحضور حفل لها وأرسلت لى تذكرتين وكانت لفتة طيبة منها بالرغم من أن الأمر ظل مقصورا على اللقاء فى المكان نفسه. وإن كنت بين الحين والحين أنشر عنها خبرا.

ووجدته يسألنى عن مصطفى أمين. وكان فى ذلك الوقت مسجوناً بعد الحكم عليه فى قضية تجسس لصالح أمريكا. فنظرت إليه وأنا تحت وطأة حالة من الدهشة الشديدة والحيرة والقلق. ولم أجد مفرا من أن أسأله أن يعطينى الأمان وأنا أضع ابتسامه على وجهى. وضحك وهو يقول لهذه الدرجة قلت نعم. وأكثر.

قال أعطيتك الأمان. فقلت له. أولا هو من وقع على قرار تعيينى صحفيا بجريدة الأخبار. وهذا فضل كبير لن أنساه له. ثم لقد دعانى إلى حفلات العشاء التي كان يقيمها بمنزله بشكل منتظم أسبوعيا. وقدمنى إلى نجوم الصحافة والفن والسياسة، وساعدنى ذلك كثيرا فى بداية حياتى، وشكل نقلة نوعية فى علاقاتى بهؤلاء النجوم، وكان هو الأستاذ والمرشد طوال سنوات العمل الأولى.

وبسرعة تحفظت قائلا إننى أحكى عنه وعن دوره فى حياتى وحياة جيلى كصحفى. وواصلت قائلا: ولأننى درست فى القانون أن الحكم هو عنوان الحقيقة؛ فإننى أعمل بما تعلمت.

كان يسمع باهتمام، ولاحظت أنه يريد أن يسمع ما هو أكثر، وبما أنه أعطاني الأمان، فقد واصلت قائلاً إنني اعترف له بالفضل وبالأستاذية في الصحافة، أما في الميادين الأخرى، فذلك شأنه واختياره، ويتولى المولى سبحانه وتعالى حسابه على اختياراته، أما عن أخطائه على المسرح السياسى فإن الأمر دائماً فى يد القضاء لمحاسبته عليها إذا ما كانت تستحق الحساب.

□□□

الفصل السادس

عبد الناصر وأنا.. حديث عن الجاسوسية

فى نهاية يوم شتوى شديد البرودة فى نهاية يناير عام ١٩٧٠م. تلقيت اتصالا تليفونيا من الفريق محمد صادق الذى شغل منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة فى سبتمبر من عام ١٩٦٩م ليحل محل اللواء أحمد إسماعيل الذى عزله الرئيس عبدالناصر كنتيجة لعملية الزعفرانة الإسرائيلية على شاطئ خليج السويس الغربى. ليطلب منى الذهاب لمقابلة الرئيس عبدالناصر فى الثامنة من صباح الغد.. ولما سألته لماذا؟!.. قال: إن الرئيس طلب منه ذلك دون أن يخبره شيئا عن أسباب هذا اللقاء.

وقضيت وقتا أحاول فيه معرفة مايمكن أن يكون سببا لذلك، ولكننى لم أصل لشيء فلم تكن هناك أمامى أية أسباب، ولكن هناك بالضرورة أمرا هاما استدعى هذا اللقاء، وكانت النقطة التالية، ولماذا جاء الاتصال من محمد صادق وليس من المسئولين بمكتب الرئيس، وقدرت أن الرئيس اختار محمد صادق لبث الطمأنينة فى نفسى حتى لا أشعر بالقلق من مثل هذا الاستدعاء غير المتوقع.

ولم يكن القلق بعيدا عنى.. ولكننى كنت أقول لنفسى: بالقطع لم أقع فى أى أخطاء تغضب الرئيس. فيما عدا قيادة مظاهرات فبراير ١٩٦٨م، وقد مرت على خير. لأن الرئيس بعد أن علم تصرف كرجل دولة، كما أن الحساب على الأخطاء له وسائل وطرق أخرى.. وكنت قد بدأت أعرف أن الاقتراب من أهل الحكم فى مصر أمر صعب.. فالعيون ستبتدأ فى المتابعة، وستخضع الاتصالات التليفونية للمراقبة، وسيجرى فرز كل من يلتقى بهم وفحص ملفاتهم. باختصار سيعيش مكشوف دائما. ومثل هذه الحياة ستفرض عليه أنماط من السلوك؛ هدفها ألا يثير الشكوك، وإذا ما فاز بقدر من الثقة، أو فلنقل إذا ما وقع تحت إدراك أنه موضع ثقة سواء أكانت هناك مساحة من الثقة به أم لا، فإنه سيتصرف بما يكفل له الحفاظ على هذا القدر من الثقة.

كنت قد بدأت أتعرف إلى هذه الحقائق بعدما اقتربت من المشير عبدالحكيم عامر،

وأولانى قدرا من الثقة، وفتح أمامى أبواب البوح لأطل على بعض معاناته، ولأعرف بعضا من آرائه فى الآخريين.. لقد كانت نقطة البداية فى هذه الثقة. عندما توجهت مع وفد صحفى وإعلامى من العاملين بقطاع الشئون العسكرية لتغطية مناورة تجريبها وحدات من القوات المسلحة فى سيناء فى بداية ستينيات القرن الماضى.

كنت مازلت فى أول الطريق، وأبذل ما أستطيع من الجهد. وقدرت وأنا أرى الرئيس عبدالناصر والمشير عامر يسيران فى المقدمة وخلفهما الجميع، أننى لو اقتربت منهما، وسرت خلفهما، فربما أسمع خبرا، أو تعليقا مفيدا أستخدمه فيما سوف أكتبه عن هذه المناورة. فأحدهما رئيس الجمهورية القائد الأعلى، والثانى هو المشير المسئول مسئولية كاملة عن القوات المسلحة والنائب الأول لرئيس الجمهورية. وبعد لحظات رأيت زميلا لهما من مجلس القيادة يأتى من الخلف بخطوات سريعة محاولا اللحاق بهما ولاحظ ذلك المشير. فنظر إليه ساخرا وباسما وسأله: «أنت عايز تعمل راسك براسنا يا ابن الجارية؟!».. وشاهدنى الرجل وهو يقول ذلك ورأيت نظراته الغاضبة المتسائلة عما أتى بى إلى هذا المكان؟!.. وكيف تركونى أسير من خلفهما وبكل هذا القرب؟!.. ولكنه ومن قلب الغضب والتساؤلات. كان متأكدا أننى سمعت سؤاله!!

وبخطوات متعثرة عدت إلى الخلف للابتعاد عن نظره تماما وعاصفة من القلق تعصف بى، ومخاوف بلا حصر مما يمكن أن يلحق بى، تسيطر علىّ، وعشرات التساؤلات تطل من رأسى، وتمتد أذرعها الأخطبوطية لتعتصرنى.. وكان مفاجعا ومدهشا أن أرى هذه القيادة اليوليوية تتراجع إلى الخلف بخطوات أسرع منى، لتتوارى بعيدا عن نظرات عامر وسخريته اللاذعة المرة.

لقد كان التساؤل عنصريا جارحا، وبه من التناول والازدراء الكثير حتى ولو كان الأمر مزاحا!! وأقول لنفسى: لو كان الأمر مزاحا ما تراجع الرجل بهذه الصورة..

لقد توقعت وأنا أسمع حديث المشير عامر، أن يطلق العضو اليوليوى النار عليه، أو أن يحاول قتله ولو بأظافره، أو أن يقول له «عيب» على الأقل أو أن ينسحب غاضبا ويعود إلى القاهرة فورا. ولكن أى من هذه الاختيارات لم يتحول إلى واقع وانسحب الرجل وظل على علاقته بالرئيس ونائبه الأول.

المهم إننى عدت إلى القاهرة متسربلا بالمخاوف، وتوجهت فورا إلى منزلى، وأملت

التقرير الصحفى الخاص بالمناورات لجريدة «الأخبار» تليفونيا. وبدأت فى إعداد حقيبة انتظارا للزوار الذين سيصحبوننى إلى المعتقل تنفيذاً لأوامر المشير عامر الغاضب من وجودى خلفه فى تلك اللحظة، لأسمع ما قاله.

وكلما سمعت وقع أقدام على السلم أقول لنفسى: ها هم حضروا. وإذا ما طرق الباب أقول: حانت لحظة الذهاب وراء الشمس!!

ومر اليوم الأول والثانى، ومع اليوم الثالث بدأت أشعر بالاطمئنان.. وتراجعت مشاعر الخوف بمرور الوقت. وحمدت الله أنها «مرت على خير». ولأنه لا يمكن أن «تسلم الجرة فى كل مرة» قررت ألا أقرب أبداً من أماكن وجود الرئيس أو المشير.

وبعد عدة شهور وصل وفد عسكري عربى، وكان من الضرورى أن أتوجه إلى مقر القيادة العليا لتغطية الزيارة والاجتماعات بين الجانبين. وعندما وصلت انتقلت من مكتب إلى مكتب حتى وصلت إلى مكتب شمس بدران مدير مكتب المشير. وهناك جلست فى انتظار وصول الوفد العربى، ووصول المشير مع كثيرين من العسكريين والصحفيين.

وعندما حضر المشير لمحنى جالسا، فنادانى وأدخلنى المكتب معه، وبدون مقدمات سألنى بعد أن دخلنا المكتب عما إذا كانت معى سيارة. فقلت: نعم.. فطلب منى أن أذهب فوراً إلى مصطفى أمين. وأطلب منه «من بتاع إمبارح»!!

فسألته: هل تريد سيادتك من مصطفى بك أن يرفق «بلية»؟!..!! وللتوضيح واصلت قائلاً: أنا «بلية». وأخشى أن يسألنى: ما هو «بتاع إمبارح»؟!.. فأعجز عن الإجابة. فقال: قُلْ له من الدواء الذى تناوله بالأمس.

وأصبحت الصورة أكثر وضوحاً. وأسرعت بالتوجه إلى «الأخبار» والتقيت بمصطفى بك. الذى استغرق فى الضحك بعد أن سمع طلب المشير، وطلب المشير تليفونيا. وتواصلت الضحكات. وانتهت المكالمة التليفونية. وسألنى مصطفى بك: ماذا فعلت لتوثيق علاقتك بالمشير؟!.. فأجبت: لم أفعل أكثر مما يفعله أى زميل صحفى.. فابتسم وسلمنى ٣ علب من الدواء المطلوب. عدت بها للمشير.

وكانت نقطة البداية.

ومثل هذه الاختبارات الصعبة تفرض على الإنسان سلوكاً محددًا ومراعاة لما يقول. وأيضاً لما لا يقول.

ولم تتوقف فى داخلى التساؤلات حول لقاء الغد مع الرئيس عبدالناصر واستعصى النوم علىّ طويلا.

وقبل الموعد المحدد كنت هناك. واستقبلنى الرجل باسم ومرحبا.. وبعد أن جلست وتبادلنا جملا قصيرة عنى وعن عملى. قال لى: إن محمد «يقصد الأستاذ هيكل» قد أخبرنى. ولاحظ أننى لم أستنتج الموضوع الذى أخبره به الأستاذ هيكل فواصل قائلا: إنه أخيره عن اتصال المخبرات الأمريكية بى.. وأنه رأى أن يسمع منى كل ما يتعلق بهذا الاتصال وبدأت الأحداث تمر أمام عينى بسرعة عالية وكأنها شريط سينمائى، ولما كانت للقصة جذور تعود للخلف عدة سنوات أوضحت له إنها كانت حكاية طويلة ولا يمكن اختصارها فى الفصل الأخير، فطلب أن أحكى كل فصولها.

فقلت له: إن زميلا من زملاء الدراسة، انضم للعمل بوزارة الخارجية، وسافر للعمل فى ألبانيا.. ولأنه عاشق للنساء والمال.. فقد انغمس فى اللذة بقوة كما أصبح واحدا من الذين يعملون بالتهريب من وإلى دول أوروبا الشرقية.. وتمكن من جمع ثروة صغيرة.

وعندما وصلت إلى ألمانيا الشرقية للدراسة، قمت بالاتصال بزملاء الدراسة الذين أوفدتهم الخارجية للعمل فى دول أوروبا، خاصة الشرقية، وبالأصدقاء والزملاء الذين سافروا إلى أوروبا للدراسة بعد الحصول على التوجيهية «شهادة إتمام الدراسة الثانوية» فى منتصف الخمسينيات «من القرن الماضى».

وقد طلب هذا الزميل الموجود فى «تيرانا» أن نجتمع فى «بودابست» عاصمة المجر للاحتفال بعيد الأضحى الذى حل فى نهاية شتاء عامى ١٩٦٦م.. ١٩٦٧م وتم الاتفاق على أن ألتقى به فى «بلجراد»، ويصحبنى بعد ذلك فى جولة بالسيارة لزيارة المجر والنمسا، ثم نعود للالتقاء مع باقى الزملاء والأصدقاء. وخلال هذه الجولة عشت صورا من صور التهريب، وعرفت بعضا من أسرارها.

وسألنى عبدالناصر عما إذا كنت قد كتبت عن هذه التجربة أو أخبرت بها أحدا؟!.. فنفت هذا وذلك.. فسألنى: ولماذا لم تتحدث مع أحد؟!.. وقلت له: لم أفكر فى ذلك إطلاقا. فقد كنت بصحبة زميل. ولولا ثقته ما عشت هذه التجربة ولما عرفت شيئا عن عمليات التهريب التى يشارك فيها معظم العاملين بالسفارات فى دول أوروبا الشرقية بما فى ذلك الاتحاد السوفييتى، كما كان هو الطريق لأعرف كثيرا من المشاركين فى ذلك سواء من المصريين أو النمساويين أو المجرىين.

وواصلت قائلاً: إن زميلاً مصرياً يعمل بالمجر قد دعانى للسهر فى ناد ليلى بالعاصمة المجرية. وفى نهاية السهرة دفع مبلغاً كبيراً جداً يتجاوز بكثير المبلغ الذى يتقاضاه من الخارجية كمرتب شهرى، كما كان سخياً فى دفع البقشيش.. وأثناء دفع الحساب والبقشيش عرفت سبب الترحيب به وبنا عند وصولنا وتسابق الجميع على إرضائه. المهم ظللنا جميعاً على اتصال طوال فترة الدراسة..

وبعد عودتى لمصر فى يونيه ١٩٦٧م. علمت من بعض الأصدقاء أن زميلنا حسن الذى يعمل بتيرانا قد أصيب بمرض جنسى نتيجة إسرافه ومعاشرته لعدد من المحترفات ويواجه احتمال فقدان ذكورته.. وقد تنقل من مستشفى إلى مستشفى بحثاً عن العلاج.. وكان خوفه عاتياً من فقدان ذكورته.. وانتهى به الأمر فى مستشفى مشهور ببودابست.

وبدأ يشعر بتحسّن، وقد أحسنت الممرضة المسئولة عنه التعامل معه.. وشيئاً فشيئاً ساعدته على النجاح فى معاشرتها. وعندما حاول مع أخرى واجه الفشل.. ووقف على مشارف الاكتئاب.. ونصحه الأصدقاء بالزواج من هذه الممرضة التى ساعدته على النجاح.. وقد كان.. وحتى لا يفقد عمله بالخارجية بسبب هذا الزواج، فقد أخفى الأمر عن المسئولين.. وواجه مشكلة كبيرة عندما انتهت فترة عمله فى ألبانيا، وتقررت عودته لمصر. فقد كانت الظروف لا تسمح له باصطحاب زوجة لا تعلم القاهرة عنها شيئاً. كما أن الإفصاح عن هذا الزواج قد ينهى عمله بوزارة الخارجية.. وإن تصحيح الأمر يتطلب التقدم بطلب للزواج من أجنبية.. وقد يوافق المسئولون على الطلب.. وقد يرفضون.. وفى كل الأحوال لن يعود إلى مصر بدونها.. فهى العلاج.. وهى مصدر الذكورة والسعادة والثقة بالنفس.. باختصار كان يراها الحياة.. ولم يكن مطروحاً أبداً أن يضحى بهذه الحياة.

وقرر الإقدام على محاولة تهريبها حتى وإن كانت لا تحمل وثائق سفر.. كما أن السلطات فى كل دول أوروبا الشرقية كانت تمنع خروج المواطنين بصفة عامة إلا فى حالات استثنائية. أى أن خروجها من المجر لن يتم إلا بطريقة غير مشروعة!!.. وبعد أن شحن متعلقاته. توجه إلى السيارة مع عدد كبير من الحقائق إلى بودابست.. ومن هناك اصطحب زوجته فى رحلة هروب طويلة من المجر إلى يوغوسلافيا واليونان وتركيا وسوريا ولبنان.. وكانت الخطة بسيطة.. تختفى زوجته تحت الحقائق قبل اجتياز منطقة الحدود.. بعدها تجلس بجواره للاستمتاع بالرحلة والصحبة..

وبهذه الطريقة تمكن من الوصول إلى بيروت.. ومن هناك بدأ خطوته الأكثر خطورة وجسارة.. لقد كان على يقين أنه لن يتمكن من دخول مصر وهي بصحبته إلا إذا كان معها جواز سفر صالح. وقد حاول شراء مثل هذا الجواز.. وكان على استعداد لدفع الكثير من المال. ولكنه فشل.

وأخيرا لجأ إلى الحل الأخير الذى فكر فيه كثيرا.. وطرق باب السفارة الأمريكية.. وأخيرا وبعد أن تأكدوا من جديته وإصراره سمحوا له بأن يقص عليهم الأسباب التى دفعته إلى هذه الخطوة؟!.. وانتهى الأمر بموافقته على العمل لحسابهم مقابل تزويده بجواز سفر لبنانى لزوجته!!

ووصل إلى القاهرة بعد انتهاء فترة تدريبه.. ولم يكذب يستقر، حتى طلب منى مساعدته فى لقاء مدير المخابرات العامة.. وقلت له: ليست لى علاقة وثيقة به.. وطلبت منه أن يطرق بابهم مثلما طرق باب السفارة الأمريكية.. فقال: إن الأمر فى مصر مختلف.. وأفضل أن أبدأ وأنا فى حماية المدير حتى لا أتعرض لما يسوء إذا ما بدأت مع صغار الموظفين.. واقترحت عليه أن أخبر الأستاذ هيكل وأطلب منه النصيحة فاستحسن الفكرة.. ورويت للأستاذ هيكل القصة فقال سألتقى بالأستاذ حسن أولا وأسمع منه.. وفعلا تم اللقاء. بعدها اتصل الأستاذ هيكل بأمين هويدى.. وذهب حسن للقاء مدير المخابرات العامة.. وبدأ مشواره كجاسوس مزدوج.

وفى ليلة من ليالى شهر ديسمبر ١٩٦٩م. كان على الذهاب إلى مكتب رئيس الأركان؛ فقد كتبت موضوعا صحفيا وأرسلته للمجموعة ٢٦ التابعة للمخابرات الحربية.. وبعد أن قرأه المسئولون بها وأرسلوه لمدير المخابرات الحربية الذى رأى ضرورة عرضه على رئيس الأركان.

وكنت قد قضيت اليوم ما بين إعداد هذا الموضوع ومتابعته، وكان المسئولون بالأهرام يضغطون من أجل بذل مزيد من الجهود للحصول على الموافقة على نشره، ورأيت الاتصال بمكتب رئيس الأركان، فقالوا إنه مشغول جدا ولم يجد وقتا لقراءة هذا التقرير. فقررت أن أتوجه إلى هناك علنى أستطيع الخروج بنتيجة إيجابية.

فى تلك اللحظات حضر الأستاذ حسن لزيارتي فى الأهرام، كان يريد استشارتى حول جواز سفر زوجته التى اكتشف المسئولون بالسفارة اللبنانية وجود خطأ به، فأخبرته إننى

فى الطريق إلى وزارة الحربية بمدينة نصر، فعرض أن يقوم بتوصيلى وشرح الأمر والمأزق الذى يواجهه ونحن فى طريقنا إلى هناك، ووافقت وظل يحكى إلى أن وصلت إلى مدخل الوزارة بشوارع الطيران، كانت الليلة ممطرة وباردة، واستخدم جنود الحراسة والأمن كشافات ضوئية لمعرفة من بالسيارة، وعندما تعرفوا على سمحوا لى بالدخول فوراً.
وفوجىء حسن بهذا التصرف، وتساءل قائلاً: تدخل وزارة الحربية هكذا، دون سؤال أو استفسار! !

واتجهت إلى مكتب رئيس الأركان وأنا أتبادل التحية مع جميع من ألتقى بهم من قوات الأمن والحراسة.

وجلسنا لفترة فى المكتب إلى أن سمح وقت رئيس الأركان باستقبالى.. ومد يده بسرعة إلى التقرير وقرأه.. ثم وقع بالتصديق على النشر. ومن مكتبه اتصلت تليفونيا بالأهرام. وأبلغتهم بالموافقة وأنى فى الطريق إليهم.

وأعدانى حسن إلى الأهرام، فطلبت منه أن ينتظر ليصحبنى إلى المنزل. ففعل.. وفى الطريق أخبرته أنه سيذهب إلى بيروت وعليه أن يطلب من المسئول بالسفارة الأمريكية استبدال جواز السفر بجواز آخر بلا أخطاء. وأن يحكى لهم أن السفارة اللبنانية بالقاهرة قد شكت فى أن الجواز الذى معه مزيف.. فقال: إن أحدا فى السفارة لم يقل إنه مزيف. فأخبرته أنهم أرسلوا صورة الجواز للسلطات اللبنانية فى بيروت ليعرفوا الحقيقة.. قبل أن يواجهوك بمثل هذا الاتهام وهم يعلمون وظيفتك وطبيعة مسئولياتك.

وسألنى عبدالناصر: ألم يتوصل هو إلى هذا الاستنتاج؟ فقلت له: لا أستطيع تأكيد ذلك.. ولكنه عندما قص على الأمر قلت له ما استخلصته مما رواه لى..

ثم سألتنى: هل كان يحيطك علما بما يقوم به؟!.. فقلت له، فى بداية الأمر أوضح لى أنه يعمل الآن كجاسوس مزدوج وأنه تلقى فى مصر تدريباً جيداً. فطلبت منه ألا يخبرنى بأى شىء وأن يتوقف أو يخفف من زيارته لى.

وواصلت قائلاً: وبعد مرور عدة أسابيع حضر إلى منزلى وسألنى: ألا تريد أن تلعب معى؟!.. فأجبتة: لا أفهم.. فقال: العم سام يخطب ودك.. فقد حكيت لهم فى بيروت.. كيف دخلنا وزارة الحربية، وكيف شققت طريقك داخل الوزارة. ثم استقبل رئيس الأركان لك.. وقد أرسلوا معى شيكا على بياض لأسلمه لك فى حالة موافقتك على أن تلعب معنا.

كما أن معى لك بطاقات سفر مفتوحة إلى بيروت أو لأى بلد تشاء لكى تلتقى بهم. فرفضت الأمر فوراً.. وأمرته بالأأ أراه منذ تلك اللحظة بأى صورة من الصور.

والتقيت بالأستاذ هيكمل وأخبرته بما جرى. فشكرنى وقال إننى فعلت الصواب. وبعد ذلك ذهب حسن للأستاذ هيكمل وأخبره بالقصة وبالرفض. وقال له إنهم فى بيروت يتلهفون للاتصال به وبإقناعه بكل الوسائل بالموافقة على العمل معهم.. ويرون أن ذلك سيكون نجاحاً كبيراً، فطلب منه الأستاذ هيكمل الابتعاد عنى.

وقلت للرئيس قبل أن أتوقف عن الكلام: هذه هى القصة.. فتحدث عبدالناصر قائلاً: لقد أبلغنى هيكمل بالقصة، فرأيت أن أسمعها منك.. وفى الوقت نفسه طلبت تقريراً من أمين عن حسن.. ويبدو أنه يبلى معهم بلاءً حسناً.

وسألنى عن مرتبى فأخبرته.. فعلق قائلاً: تتقاضى مثل هذا المرتب وترفض شيكاً على بياض؟!.. وواصل قائلاً: كم صحفياً يمكنه أن يتصرف مثلك؟!.. ولم أجب لأننى أعلم أنه يعلم حقائق كثيرة عما يجرى فى الوسط الصحفى. وأن الصحافة والصحفيين هى اهتمامه الثانى بعد القوات المسلحة.. وأياً كانت إجابتى فهى لن تضيف له شيئاً.

ويقول الرئيس: إن أمين سألنى: ولماذا لا نقتنع الأستاذ عبده بالعمل كجاسوس مزدوج؟!.. وقتها سنعمل على تدريبه جيداً.. وسيكون تحت عيوننا باستمرار.. وهو يرى أن ذلك سيكون مفيداً لمصر.

وكانت إجابتى: إن مثل هذه المهمة تتطلب ذكاء وسرعة بديهية وقدرة هائلة على الأداء وإخفاء المشاعر والسيطرة عليها ومكر ودهاء.. بالإضافة إلى سعة الحيلة. وإننى لا أتمتع بمثل هذه الصفات.

وابتسم عبدالناصر وهو يقول: لقد توقعت أن أسمع ذلك منك.. وتوقعت أن رفضك سيسبق تفكيرك.. وواصل قائلاً: كما أن أمين يرى أن الأمريكيين سيحاولون الاتصال بك مرة أخرى.. واقترح وضعك تحت المراقبة حماية لك.. وقد أمرته بالابتعاد عنك تماماً. وفى نهاية اللقاء قال وهو يقف ليودعنى بحرارة ومودة: «إننى أشكرك على هذا الموقف وأقدر لك ما فعلت».



الفصل السابع

القذافي حاول خداع عبد الناصر!

قبل أن يصل معمر القذافي إلى القاهرة لأول مرة بعد نجاح الانقلاب العسكرى الذى قاده يوم أول سبتمبر عام ١٩٦٩م لاستكمال بناء الجسور مع جمال عبدالناصر، والتعرف إليه وجهها لوجه، والحديث معه والإنصات إليه باعتباره الملهم والزعيم القومى الذى لا منازع له بالرغم من هزيمة يونيه ١٩٦٧م. لم يشأ عبدالناصر أن يلتقى به فور وصوله.. كان فى حاجة إلى المزيد من المعلومات عن هذا النقيب أو الملازم أول.. كان يريد أن يقرأ خريطة أفكاره وتطلعاته. وكانت خبرات عبدالناصر الانقلابية ماثلة دائما وحاضرة فى ذاكرته، فقد سبق أن سار على درب نفسه وخبره.. وتعرف على أسراره.. لذا كانت تساوره شكوك تقلقه.. ومخاوف من هذا الجار ومن أصحاب الفضل أو الأيادى البيضاء عليه.

والذى لا شك فيه أن القذافي كان يعتبر أن ما قام به فى ليبيا هو امتداد طبيعى ومنطقى لما جرى فى مصر يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢م. ولم تكن القاهرة بعيدة عما كان يجرى فى ليبيا.. وقد وصلت مجموعة تقارير عن رحلة الملازم أول معمر القذافي إلى لندن قبل الانخراط بشكل جاد فى التحضير للانقلاب على النظام الملكى السنوسى.

وبعد نجاح الانقلاب، أوفد عبدالناصر الأستاذ محمد حسنين هيكل للقاء أصحاب السلطة الجدد فى ليبيا خاصة معمر القذافي. وهناك فى طرابلس، استقبلوا هيكل بحفاوة شديدة.

وعاد هيكل ليكتب لقراء الأهرام تقريرا متميزا وللرئيس عبدالناصر تقريرا مختلفا. حيث تضمن الأسرار التى لا يمكن نشرها وقراءته الشخصية للمجموعة الانقلابية الشابة. وقد رافق هيكل فى رحلته السريعة إلى ليبيا أستاذ فن التصوير الصحفى الكبير محمد يوسف الذى التقط مئات الصور لمعمر القذافي ولباقى أعضاء المجلس الثورى، وكانت أول صور تنشر على الصفحة الأولى بجريدة الأهرام للقائد الليبى من تصوير محمد يوسف كما أنها كانت أول صورة تنشر له فى العالم، ولذلك قصة، وحتى لحظة وصول هيكل للعاصمة

الليبية، لم تنشر لمعمر ولا لأى من قادة الثورة صورة صحفية أو تليفزيونية، وكان ذلك اختيارهم لقد أرادوا الابتعاد عن الأضواء ولكن هيكل تمكن من إقناعهم بأهمية نشر صورهم خاصة صورة القائد معمر حتى لا يتمكن أحد من سرقة الثورة وقد اقتنعوا ووافقوا على النشر خاصة لصورة معمر.

وقرأ عبدالناصر التقرير.. واستمع إلى انطباعات هيكل وتقييمه لهم وللموقف. كما أمضى وقتا طويلا فى تأمل الصور.. حيث كان يفضل التعرف على الشخصيات السياسية والقيادية من صورها وكثيرا ما قال، إنه يمكنه التعرف إلى أبعاد الشخصية وقراءة أفكارهم من الصور، وكان هيكل يعرف ذلك وكثيرا ما زوده بعشرات الملفات من صور الشخصيات العالمية والعربية لكى يمارس منهجه المفضل، ودائما ما كان يطلب ملفات صور الملوك والرؤساء والزعماء قبل أن يلتقى بهم، ليعرف من الصور ما يريد وليقرأ من خلالها مستقبل علاقاتهم به وبمصر... ولأنه رأى تأجيل اللقاء بالقدافى. فقد وقع اختياره على الفريق محمد صادق رئيس الأركان، ليكون الشخص الذى سيوفر له المعلومات التى يريدها عن القذافى.. فقد كان ملف الانقلاب أمامه.. وسبق أن تحدثا بشأنه.. عندما كان صادق يشغل منصب مدير المخابرات الحربية. وقدر رئيس الجمهورية أن خبرات الرجل كملحق حربى متألق فى ألمانيا ولنجاحاته البارزة وقتذاك وكمدبر مخابرات كفاء. تجعله أنسب من يتولى هذه المهمة.

وكان قد تم إبلاغ القذافى أن ارتباطات عبدالناصر تحول بينه وبين استقباله فور وصوله، وأن الرئيس يقترح عليه أن يزور الجبهة؛ خاصة ومعارك الاستنزاف تتواصل بنجاح.. ليتعرف عن قرب على حقيقة الموقف العسكرى والضغوط التى يشكها من خلال اللقاء المباشر مع القادة والضباط والجنود. وتم إبلاغه أن الفريق محمد صادق رئيس الأركان سيصحبه خلال هذه الزيارة وطلب عبدالناصر من صادق أن يحاول معرفة الكثير عنه وعن نواياه ومخططاته وأسلوبه فى التفكير وتأثيره على المجموعة الثورية وموقفهم منه وأسرار الانقلاب والقوى التى يستند إليها داخليا وخارجيا وقوة التأثير القبلى، وماذا يتوقع من القاهرة، ويستقبل علاقات ليبيا بدول الجوار وباقى الدول العربية وبالذات الأوروبية خاصة إيطاليا والقوتين العظميين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

واتجه القذافى بصحبة الفريق صادق إلى قيادة الجيش الثانى الميدانى بالإسماعيلية..

واستقل أعضاء الوفد الليبي عددا من السيارات بصحبة مجموعة من القادة.. اختارها صادق بعناية؛ لتشاركه في إنجاز المهمة كما أرادها عبدالناصر.

وبعد انتهاء اللقاء والاستماع لشرح اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني الميداني كانت هناك دعوة لتناول الشاي.. وأثناء ذلك طاف الفريق مع معمر وبدأ في تقديم القادة له.. وعندما وصل إلى المكان الذي أوقف فيه مع عدد من مساعدي رئيس الأركان قال له: سأقدم لك الصحفي والمدني الوحيد الذي يشارك في عمليات الكوماندوز خلف خطوط العدو. وتساءل القذافي: كيف يشارك وهو مدني؟!.. فقال له صادق: إنها حكاية طويلة يمكنك أن تسمعها منه. وقال القائد الليبي موجهاً حديثه إلى: سنلتقي بإذن الله في المساء. وبعد التأكد من إجراءات تأمين الوصول إلى المواقع الأمامية تمت الزيارة بعدد محدود حتى لا تتكرر مأساة الشهيد عبدالمنعم رياض. واستمع القذافي إلى قصة استشهاد، وعرف بشكل عملي صعوبة اقتحام القناة كمنع مائي محصن ومدافع عنه جيدا بخط دفاعي شديد التحصين..

وتطرق حديثه لاحتمالات الحرب.. فأكد له صادق أن مصر ستحارب لتحرير أرضها المحتلة.. ولكنها في حاجة أولاً لاستكمال احتياجاتها من الأسلحة والذخائر والمعدات والأجهزة. وسأل القذافي ببراءة عن العوائق التي تحول دون ذلك. وباختصار أوضح له رئيس الأركان أن مماثلة الاتحاد السوفييتي في الوفاء بالتعاقدات وعدم القدرة على شراء السلاح من مصادر أخرى سواء لنقص التمويل أو لرفض بعض المصادر بيع السلاح لمصر. وبغضب صاحبه انفعال. قال القذافي: ولماذا لا تدفع الدول العربية الغنية ثمن هذا السلاح؟!.. واستطرد قائلاً: إن ليبيا ستقوم بدورها وستطالب باقي الدول العربية بتحمل التزاماتها.

وخلال الاجتماع العسكري سأل واستفسر عن عمليات التخطيط والاستعداد للحرب.. فرد عليه القادة مؤكدين أن الحرب قادمة.. وأن معارك الاستنزاف مرحلة ضرورية في إطار الاستعداد للحرب.. وبجدية كاملة اقترح القائد الليبي نقل ثلاث فرق من المدرعات والمشاة الميكانيكية إلى الجبهة السورية وبدء حرب التحرير من هناك. وقال: إذا كانت القناة كمنع مائي تحول بين مصر وبدء الحرب قبل الاستعداد لذلك، فإن الجبهة السورية لا يوجد بها لنفس المانع المائي. ويمكن للقوات الهجوم على إسرائيل من هناك وتحقيق

الانتصار وتحرير الأراضي المحتلة.. ووجد القذافي استحسانا وتشجيعا وتأييدا من باقي أعضاء الوفد الليبي.

وأمسك الفريق صادق بأول الخيط وتساءل: وكيف سيجرى نقل هذه القوات إلى سوريا؟!.. وهل سيتم ذلك بحرا أم جوا؟!.. ثم أجاب: إن مصر لا تملك الأسطول الجوي القادر على نقل هذه القوات جوا.. كما أنها لا تملك سفن نقل بحرية كافية لمثل هذه العملية.

وكان رئيس الأركان جادا وهو يشرح هذه العقبات للقذافي ولأعضاء الوفد المرافق له.. وفي الوقت نفسه كان واضحا وبسيطا.. وكان هدفه إقناع الجميع حتى لا يعودوا لطرح مثل هذه الاقتراحات.

نعم هم عسكريون وحكام، ولكنهم في حاجة إلى وقت لدراسة الواقع بكل أبعاده.. وشعرت في نهاية الاجتماع أن الوفد الليبي لم يصل إلى مرحلة الاقتناع. لقد سمعوا ولم يكن لديهم المعلومات أو الحقائق العسكرية التي يردون بها على ما سمعوه.. وبالنسبة لهم ظلوا على اقتناع بأن الاقتراح أو الخطة التي طرحها معمر خطة عبقرية. ورأوا فيها سبيلا عمليا لتحرير الأراضي العربية المحتلة وإلحاق الهزيمة بالقوات الإسرائيلية.

وفي المساء أرسل القذافي في طلبي.. وباسما مندهشا سألني عما إذا كنت أشارك حقا في عمليات الكوماندوز خلف خطوط العدو؟!.. فأكدت له الأمر.

وطلب أن يسمع حكاية المدنى الفدائى.. فحكيتها له.. ثم سألت عن العمليات التي تقوم بها. فبدأت بالحديث عن إبراهيم الرفاعي قائد المجموعة، وأنه يعد القائد النموذج والقدوة لكل مقاتلي المجموعة من الضباط والصف والجنود.

واتصل تليفونيا بالفريق صادق وطلب لقاء إبراهيم الرفاعي الذي سمع عنه مني الآن.. فاستجاب الرجل وأخبره أنه سيكلف مدير مكتبه بالاتصال بالرفاعي ويطلب منه الحضور إلى الإسماعيلية.

والثفت القذافي يسألني: متى أتوقع وصول قائد قوات الكوماندوز؟!.. فقلت: لن يستغرق الأمر ٩٠ دقيقة من لحظة العثور عليه تليفونيا. فقال: هل هناك فرصة أن نراه الليلة؟!.. فأجبت: لو أنك تحب السهر فسأترك له خبرا لكي يأتي إلى هنا فور وصوله. وبدأ القذافي يسألني عن القوات الموجودة بالجبهة؟!.. فقلت له كما رأيت.. بعض

مواقع الجيش الثانى.. هناك جيش ثالث فى القطاع الجنوبى من الجبهة.. والقوات الموجودة كافية جدا لخوض معركة دفاعية ناجحة ضد قوات العدو.. وأن هناك عمليات تدريب مستمرة لرفع مستوى الكفاءة القتالية.. وهناك فرق دفاع جوى وقوات جوية.. يجرى دعمها باستمرار سواء بإنشاء قواعد دفاع جوى جديدة وقواعد جوية إضافية فى العمق. ولكن العقبات كثيرة وفى مقدمتها تأخر وصول الأسلحة والمعدات من الاتحاد السوفييتى، وعدم توفر التمويل الكافى الذى يسمح بشراء أسلحة من خارج دول الكتلة الشرقية.

وسألنى مباشرة عن الرئيس عبدالناصر؟!.. وعن آخر مرة رأيته فيها؟!.. فقلت له: إننى أراه على فترات متباعدة.. والأمر يتوقف على وقته وإرادته. فسألنى عن صحته.. فقلت إنه بصحة جيدة بالرغم مما يعانىه من متاعب صحية. فحاول أن يعرف أكثر فأوضحت له أنه سيلتقى بالرئيس بعد ساعات وسيدرك بنفسه أنه فى حالة صحية جيدة. وأراد أن يعرف المزيد.. فانتحى بى فى صالون آخر.. واستفسر عما إذا كان الرئيس يرحب بالحديث حول كل القضايا؟!.. وقلت له: إن الرئيس اعتبر نجاح الثورة فى ليبيا نجاحا شخصيا له. وقد ارتفعت معنوياته بشكل ملحوظ بعدها.. وبعدها تسلم تقرير الأستاذ هيكل.. وبدأ فى الصور التى التقطت له أكثر شجوبا. وإننى أتوقع أن يصبح الرئيس فى حالة أفضل صحيا ومعنويا بمجرد أن يلتقى بكم ويسمع منكم. وثق أنه سيرحب بطرح كل الموضوعات التى تريد أن تطرحها. وسيكون واضحا وصريحا جدا وهو يتحدث عن العلاقات بين بلدينا. وعن تصورات المستقبلىة لهذه العلاقات.

فقال معمر: إننا على استعداد للتضحية بأنفسنا من أجل مصر والقضايا العربية. وسيجد منا كل ما يسعده قولنا وفعلا.

ودق جرس التليفون. وقال من تلقى المكالمة إن مدير مكتب الفريق صادق يسأل: هل يحضر إبراهيم الرفاعى الآن.. أم ينتظر للغد؟!.. فقال القذافى: أخبره يا أخى أن يتفضل الآن.

والتقى القذافى وأعضاء الوفد بقائد الكوماندوز المصرى وسألوه كثيرا وسمعوا منه. وكان إعجابهم وتقديرهم له كبيرا. كما نجح الرفاعى فى ترك انطباع جيد لديهم جميعا. وخلال اللقاء عرضوا عليه تدريب مجموعة من الضباط الليبيين سواء فى مصر أو فى ليبيا.. فقال إنه مستعد لذلك جدا. ويرحب به.. ولكن بعد عرض الأمر على القيادات المسئولة.

وانتهت الزيارة التي أعتقد أنها كانت مفيدة جدا للوفد الليبي. فقد وقفوا على الحد الأمامي للقوات غرب القناة، وشاهدوا العلم الإسرائيلي مرفوعا على المواقع الإسرائيلية الحصينة شرق القناة. ورصدوا بعضا من تحركات القوات الإسرائيلية شرقا. وبدأوا يتعرفون بشكل مباشر إلى معنى الاحتلال ومرارته في حلق المصريين الرابضين في مواقعهم غرب القناة.

وعادوا إلى القاهرة وهم على اقتناع بأن زيارة الجبهة كانت الإنجاز المهم لهم قبل لقائهم بالرئيس عبدالناصر الذي اتخذوا منه ملهما ومرشدا وقودة.

وقدم الفريق صادق التقرير المطلوب للرئيس عبدالناصر.. وحكى له ما جرى خلال الزيارة بما في ذلك الاقتراح الخاص بنقل ثلاث فرق مصرية مدرعة ومشاة ميكانيكية إلى الجبهة السورية وبدء حرب التحرير من هناك.

بعدها التقى الرئيس عبدالناصر بالقذافي. وكان لقاءً رائعاً رفع معنويات الرئيس المصري؛ خاصة وهو يسمع أحاديث التقدير والإعجاب من كل أعضاء الوفد.

وطلب الوفد الليبي من مصر دعمه دعما كاملا بالخبرات الفنية والأمنية والإدارية والقانونية.. واستجابت مصر.

وانتهت الزيارة.. ولكن ظل الترقب قائما.. وبعد أسابيع كنت بمكتب الرئيس، فسألني عن معمر، فأجبت قائلا، إنه شاب أخرق وخطير فتساءل، بتقول «أخرق وخطير؟» فقلت له، يافخامة الرئيس إن قائد الثورة الليبية ضابط برتبة نقيب أو ملازم أول، وقد طرح على العسكريين المصريين وعلى رأسهم رئيس الأركان المصري اقتراحا بنقل ثلاث فرق مصرية إلى الجبهة السورية وبدء حرب التحرير من هناك، وقد أوضح له الفريق محمد صادق حقائق الموقف العسكري، ورد على هذا الاقتراح من وجهة النظر العسكرية، وأبرز حقيقة العقبان التي تحول دون وضعه موضع التنفيذ ولم يترك شيئا يتعلق بهذه القضية إلا وتحدث عنه باستفاضة، وكنت أتوقع أن يقتنع معمر القذافي وللذين معه بما طرحه رئيس الأركان المصري، وهو بالنسبة لهم الأقدم رتبة والأكثر علما وخبرة ودراية، وإن يتخلوا عن الفكرة تماما، ولكنني فوجئت وأنا أجلس معهم بإصرارهم على الفكرة، ويرون أنها خطة عبقرية ستؤدي إلى الإسراع بالمعركة دون انتظار للظروف والامكانات التي تسمح باقتحام القناة، وستقود إلى النصر وإلحاق الهزيمة بالقوات الإسرائيلية وتحرير الأراضي المحتلة، وتوقعت

المزيد من هذه الأفكار العبقريّة، وسكت الرئيس ولم يرد، فاستأذنت في الانصراف وأنا أشعر بالندم لأننى تسرعت بالإجابة، ووصفت القذافى بهذا الوصف، وللتخفيف من وطأة الإحساس بالندم، قلت لنفسى، لقد سألتنى، فأجبتته بصدق ووفقا لقراءتى لشخصيته ولواقفه ولأفعاله وردود أفعاله من خلال الاقتراب منه والحوار معه.

بعدها استغل القذافى ثقة عبدالناصر فيه؛ خاصة بعد أن أعلن أنه يرى فيه شبابيه. وطرح عليه فى زيارته التالية قضية جديدة بمنطق سهل وواضح وواقعى. حيث قال لعبدالناصر: إن الشواطئ الليبية على البحر المتوسط طويلة. وتمتد لأكثر من ألفى كيلو متر.. والإمكانات الليبية الحالية لا يمكنها أن توفر الحماية لها. وفى ظل هذا الوضع فإن أمن ليبيا فى خطر، ويمكن للآخرين اختراق هذه الشواطئ والقيام بأى أعمال عدائية. وأشار إلى وجود قوى كثيرة معادية تنتشر أساطيلها فى البحر المتوسط. وأكد أن هذه القوات تملك قدرات هائلة وإن لم تخطط لعمليات عدائية، فإنها تستطيع أن تمارس الضغوط على ليبيا. وقال: إنه حتى ولو سلح الشعب الليبى وطلب منه حراسة وحماية هذه الشواطئ، فإن النتيجة لن تكون مطمئنة.

وبعد هذه المقدمة وصل إلى الهدف الذى جاء من أجله، حيث قال: لقد جئت إليك لأستعين بك لحماية الثورة وليبيا وأهلها من غدر الغادرين.

فسأله عبدالناصر.. وكيف أفعل ذلك؟!

فأجابه: بالموافقة على إرسال قطع من الأسطول البحرى المصرى إلى المياه الإقليمية الليبية لكى تقوم بحماية الشواطئ الليبية.. وليبيا على استعداد لتحمل كافة الأعباء المالية.. ورد عليه عبدالناصر قائلا: إن القوات المسلحة المصرية ليست للإيجار.. كما أنها ليست جيشا من المرتزقة. ولكن وبما أن هذه المسئولية واجب قومى، فإن مصر ستتحمله عن طيب خاطر وبلا مقابل.. وبعد هذه الموافقة التى أتت على هواه ومحققة لهدفه. قال: إننى أرجو أن تكون الغوصات من بين قطع هذه القوة..

فأكد له عبدالناصر إنه سيأمر قائد القوات البحرية بذلك، وسيطلب من وزير الحربية متابعة تنفيذ هذا الأمر بنفسه.

وهنا قال معمر: إذا ما وصلت هذه القوة البحرية إلى ليبيا.. فإننى أتطلع إلى أن يتلقى قائدها أوامره منى؛ حيث سيكون فى المياه الإقليمية الليبية.

.. وبالرغم من الدهشة والشك.. وافق عبدالناصر على أن تكون هذه القوة تحت قيادته. وطار العقيد فرحا. ولم يعرف كيف يوجه الشكر لمعبوده عبدالناصر على موقفه القومي العروبي.. واستجابته لمطلب توفير الحماية للشواطئ الليبية.

وما أن خرج القذافي حتى أصدر عبدالناصر أوامره إلى وزير الحربية لتنفيذ هذه المطالب.. بعدها تحدث مباشرة مع قائد القوات البحرية، وطلب منه أن تأتمر هذه القوة بأوامر القذافي ولكن بشرط ألا تنفذ أى أمر يصدر لها إلا بعد إبلاغك شخصيا بذلك. وإن كان بها ما يثير شكوكك أو شكوك قائدها فيجب أن يتم إبلاغى بذلك فورا.

وكانت شكوك عبدالناصر فى محلها. فبعد أسابيع تم إبلاغه بأن القذافي طلب من قائد القوة البحرية المصرية إرسال غواصة إلى منطقة قريبة من الشاطئ الإسرائيلى لإغراق باخرة أمريكية سياحية ضخمة أثناء توجيهها إلى الموانئ الإسرائيلية.. وكانت الباخرة تحمل على ظهرها عددا كبيرا من اليهود والإسرائيليين بجانب مجموعة من اليهود الأمريكيين الأثرياء وأعضاء من السلطتين التشريعية والتنفيذية. فأصدر أوامره بعودة هذه القوة البحرية فورا بعد أن تبين أن الزعيم الليبى قد خدعه.

□□□